لجنة البيان العربي

الاستعمار الفرنسي في شمال أفريقية

تأليف

أحمد رمزي

القنصل العام ثم ممثل مصر السياسي
بسوريا ولبنان من ١٩٣٩ — ١٩٤٤

المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابوري بالحلمية الجديدة

لجنة البيان العربي

الاستعمار الفرنسي في شمال أفريقية

تأليف

أحمد رمزي

القنصل العام ثم ممثل مصر السياسي
بسوريا ولبنان من ١٩٣٩ — ١٩٤٤

المطبعة النموذجية
٦ حارة الشابوري بالحلمية الجديدة

مقدمة الكتاب

للأستاذ محمد توحيد السلحدار

اقترح المؤلف الفاضل المعروف بثقافته السامية ، وأدبه البليغ وآثاره القلمية النفيسة ، أن تكتب هذه الكلمة . وإنه ليشرفها أن يضعها بجانب مقدمته تكريماً للصداقة .

أما الكتاب فهدية إلى من شاء أن يعمل في سبيل بلاده الشرقية « بإرادة وبصيرة وعلم وحزم » . وهو « من وحي الحوادث التي توالت على الدنيا » ووحي « الاطلاع » على المصادر التاريخية والسياسية والدبلوماسية التي تزيل الأوهام وتصحح الأفهام . لم يوضع على برنامج أعدّ له بدءاً ، بل جمع أبحاثاً سبق نشرها أو نشر بعضها . ولكن وحي الحوادث والاطلاع لم يمنع أن يجيء لحوى الكتاب وروحه ، والآراء الذاتية الجديدة الواردة فيه ، ثمرةً يانعة من شعور المؤلف وقريحته مهداةً إلى القلوب والعقول؛ ولم يمنع أن تكون هذه الآراء سديدة — وإن اعتذر صاحبها من

أى خطأ محتمل بأنه إنسان يخطىء ويصيب متواضعاً باعتذاره تواضع الخبير المستنير، ولا أن يدل سياق فصول الكتاب وأقسامه على أن الذى رتبه عقل منظم عرف فن التأليف . وهو صنيع جدى ينتفع به من حضه الضمير على توخى المعرفة من كثرة المشتغلين فى شرقنا بالسياسة والدبلوماسية ، الرسميين وغير الرسميين .

والحق أننا ، نحن معاشر أهل الشرق الأدنى ، على ضلال سادرين فى السعى لمطامعنا الذاتية ، وفى غرورنا وأوهامنا السياسية ، وأساليب عيشتنا ومانسميه كفاحنا ؛ وصاحبنا على حق حيث يقول: « ستفرض على شعوب الأرض أنواع جديدة من الحياة وضروبها وسيلقن الزعماء والقادة أشياء يتفوهون بها فيقولون أنها من عند أنفسهم » ؛ وعلى حق أيضاً إن هو قصد إراحة ضميره بنشر أبحاث لعلها تساعد فى إيقاظنا وهدينا الصراط المستقيم .

فان كثيرا من حوادث بلادنا وأحوالها ، قديما وحديثا ، لاتتبين حقائقه كلها إلا على ضوء كاف من واقع المنافسات الاستعمارية وتدخل بعض الدول الكبيرة فى شؤوننا ، وتغلغل النفوذ الأجنبى فى مصالحنا ؛ ونحن لا نتمكن من خدمتها بحكمة وليس يتاح لنا الدفاع عنها ، فى حدود المستطاع ، إلا بقدر ما نعرف من

مصالح تلك الدول الحيوية وغير الحيوية ومن مصالح جيراننا ، وبخاصة فى زماننا هذا الذى أصبح فيه استقلال كل دولة صغيرة أو كبيرة شيئاً نسبياً، وتصرفُها فى سياساتها متأثراً من تصرف غيرها فى سياساته .

وتلك حقائق لا تؤخذ من الكتب المدرسية والجامعية ، ولا من الصحف والبرقيات والدعايات — وإن جاء فى أقوالها أحيانا تلميح يدرك مغزاه من يستطيع فهم الكلام على خلاف مقتضى الظاهر منه ، بل هى حقائق انما مظانها مثل هذا الكتاب الصادر عن تلك الثقافة النظرية العملية ، العديدة الألوان ، الوافية ، التى تهدى الشعور ويعتدل بها حكم العقل لرسوخ أصولها السليمة فى الوعى الباطن فلا يغترّ صاحبها بالظواهر ، وإلا فان البصيرة يكثر أن يعتريها ، أمام مناظر التاريخ أو الأحداث السياسية ، ما يشبه أوهام البصر فتقدر أن الجوهرى فى هذه المناظر أو الأحداث هو أبرز ما يلفت النظر منها ، ولا تدرك أن الخطورة انما هى للأمور القليلة الظهور ، المتسقة سيرتها ، الدائمة العامة .

فمن لا يتتبّع فى التاريخ ، مثلا ، سوى أعمال كبار ممثليه يرى فيه مناظر روائية جميلة لها وقع فى رائق ؛ فان هو أدرك أن الأمور

يتصل بعضها ببعض ويرتبط بدا له عندئذ أن خلف المظاهر السطحية الروائية أمورا هى أقل حركة ولميعا وشأنا للناظر العادى الساذج ، ولكنها أجدر بلفت نظر المستطلع الذى يتوخى أن يعرف سر الأشياء ومصائر الأمور .

ومثل هذا المستطلع البصير يتضح له أن أقوى الأفراد من البشر حققوا لأنفسهم بالتسلط على الأضعفين ما لم يكن لذواتهم عنه غناء من أحوال العيشة الراضية ؛ ويتبين له أن طفيلية الأعزة هى الغرض الظاهر أو الخفى ، المباشر أو غير المباشر ، من أكثر النظم التى تشكلت على توالى القرون وكونت إطار المدنية ، حتى بعض ما يتضمن كونته ؛ ويستيقن أن الكفاح لا ينقطع : كفاح أفراد فى سبيل السلطة العليا ، وكفاح طبقات للسيادة فى شعب ، وكفاح شعوب لحيازة الأرض وحاصلاتها ؛ فمن جهة ، يجد الحروب والمعاهدات الدولية ، والثورات والمقاومات ، والاختلافات الحزبية والأزمات والتراضى ، وكل أولئك أمور تدل على جهد الأنانية الطفيلية فى أفراد وجماعات غرضهم استغلال ينيلهم أكثر ما يمكن من المنافع ؛ ويجد من الجهة الأخرى مقاومة الفرائس التى تدافع عن نفسها وما فتئت تغير وجه الأنسانية ؛ وليس بد للضعيف من

المصانعة تحقيقاً لأغراضه ، فى حدود المستطاع ، على التدريج حتى لاتقعده القوى المختلفة التى لا قبل له بها عن هذه الأغراض ، ولا وسيلة أمامه للتفادى من بعض الأضرار بغير حكمة ومصانعة ليست تحول دون التقدم بتؤدة نحو مثله الأعلى .

من أجل كل ما تقدم بيانه كان من أصول التأليف المفيد فى « الاستعمار الفرنسى فى شمال افريقية » أن يبدأ المؤلف بإيقاف كل قارىء على أصل الاستعمار الجديث واطواره ، وتوسعه الجارف ومشاكله وأثر هذا التوسع ؛ وأن يُفهم العامة من المتعلمين ، والكثرة من خاصتهم معهم ، أن كل دراسة لشؤون العالم بقصد الكفاح فى سبيل تحرير الشعوب « يجب أن يسبقها تعرف هذا التوسع وأثره ، وأهميته ومداه ، لكى نستخلص القواعد الأولية التى تعرفنا العلاقة بين الشعوب المحكومة والدول الحاكمة ، وهى التى تنير بصيرتنا وتحدد مركزنا إزاء أوربة لكى يركز على أساس منطق معقول موقف الأجيال القادمة من هذه السيطرة وعلاقتها بما يجيش بصدور الشعوب من آمال ، وما ترجو الوصول إليه من أهداف حتى تحرر نهائياً » . فإذا هم وقفوا على تلك الأمور كان من أنفع مايتضح لهم أن السيطرة الأوروبية جاءت بنتيجتين ، إحداهما

إيجابية والأخرى سلبية ، و « أن الأثر السلبي كان مظهره ضياع استقلال الشعوب الأسيوية والافريقية ، وفقدان حريتها وتصفية الطبقات الحاكمة فيها ؛ فلم يعد فيها رجال من الصنف الأول ، وهذا النوع من القادة هم عدة الشعوب ودرعها » ، فلا بد لها من العمل على إيجاد أمثالهم .

وليس شك فى أن هذا التمهيد يسهّل للقارىء تفهّم أقسام الكتاب العظيم على صغر حجمه وما احتوت من حقائق تاريخية ، شبه فلسفية ، فى فرنسا ومستعمراتها وفى أثر المنافسة والعوامل الدولية فى استعمارها ؛ وحقائق فى الاتحاد السوفيتى والاتحاد الفرنسي والاتحاد الهندوكى ، وهذه « ثلاث هيئات اتحادية يواجهها العالم الاسلامى فى يقظته وكفاحه ضد الاستعمار الانجلوسكسونى والأوروبى والصهيونى » ولو شاء المؤلف أن يفيض فى بيان تلك الحقائق لاستطاع شرحها فى مجلد ضخم ، وليته يشاء .

وقد أتاحت نظرته العامة الثاقبة فى هذا الموضوع العديد الجوانب العويص أن تتجه له آراء ذاتيه جديدة : حيث ابان المتناقضات فى أنظمة الاتحادات السوفيتى والفرنسي والهندوكى ، مع اظهار الناحية التعسفية فى كل منها ؛ وحيث قارن بين أساليب السوفيت

الاستعمارية وما تنوى فرنسة إنشاءه من اتحاد بين مستعمراتها ؛ وحيث شرح السياسة الدينية التي تجريها الدولة الفرنسية اللادينية فى الأقطار الاسلامية الواقعة تحت حكمها .

الخلاصة أن هذا المجموع من الأبحاث كتاب جيّد ، يُعتمد عليه فى فهم موضوع الاستعمار وسياساته الدولية : ويجمل بمحب الاطلاع والاستنارة أن يثق به ، ويقرأه بعناية وتفكر وإمعان ، ليفهم مافى سطوره وما بين السطور ، أى ليدرك ما لم يقل مؤلفه مما قال صراحة وتلميحاً ، وعرضاً موجزاً لحقائق الواقع فى الشعوب والدول والسياسات والمنافسات الاستعمارية ، تلك الحقائق التى يجب الاهتداء بمنطقها . فهو كتاب ينفع زعماءنا وساستنا ، أخلصوا أو لم يخلصوا ، وينفع كل قارىء من الشرق العربى يريد ألاّ تضلّه البرقيات والسفسطات السياسية والدعايات .

القاهرة فى ٢٠ من أكتوبر عام ١٩٤٨ — محمد أبو حديد

الاهداء

إلى ذلك الرعيل من الرجال الذين قابلتهم فأوحت إلىّ أعمالهم ونظراتهم وأقوالهم :

بالايمـان والثبات والتضحية .

إلى الطليعة الأولى من شباب الأمم المظلومة التى بدأت تعمل بارادة وبصيرة وعلم وحزم والتى غرست فى نفسيتها رغبة التغلب على المصاعب وغريزة مواجهة الأخطار .

إلى الذين يؤمنون بحق الشعوب المظلومة فى الحياة ، من أبناء الشرق والغرب ومن أبناء قرننـا نفسها .

أقــدم هذا الكتاب ؟

المؤلف

مقدمة المؤلف

الى القارىء الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

١ — الحمد لله والصلاة والسلام على محمد المبعوث لهداية العالم الذى جاء بكلمة الحق وفصل الخطاب فجهر بالقول ثم قرن القول بالعمل حين قاد الكتائب وباشر القتال وقام بالثورة الكبرى يومئذ حقت كلمة الله . وتحررت ارادة الانسان وتحطمت الاصنام الزائفة بعد عشرة قرون من الطغيان والجبروت على الشرق واهله .

٢ — وبعد فهذا كتاب ليس لى الفضل فى إخراجه اذ جاء كله من وحى الحوادث التى توالت على الدنيا فهو مجموعة ابحاث وراء سبق لى نشرها اونشر بعضها فى مجلة الرسالة الغراء . ولذلك لم اضع له برنامجا او خطة منطقيه ترمى الى هدف معين

٣ — ولا يظن القارىء اننى استجمعت كل المراجع التى وردت فى نهاية الكتاب وتصفحتها عند كتابته وانما هى مجموعة من الكتب التى قرأتها منذ سنوات فأثرت فى نظرتى لبعض الاشياء . لهذا فانا

مدين لها ولا اذكرها على سبيل التفاخر وانما على سبيل ارجاع الحق لاربابه .

٤ — ولقد تبدو بعض الاراء جديدة أو شخصية فهذه جاءت نتيجة دراسة بدأت منذ سنوات وبعد تفكير طويل لازمني مدة من الزمن ولهذا أراني مسئولا امام القارىء عن هذه الناحية واقول انى فكرت كانسان فإن خانني التوفيق واخطأت فليس ذلك الالانى انسان ومن طبيعة البشر أن يوفقوا أحياناً وان يخطئوا أحياناً

٥—تسير الأمور بخطوات سريعة على غير ما نبغى

فعند كتابة هذا الكلام كنا نواجه القوى المتجمعة لنزع اوطاننا من ايدينا .

اما اليوم فإنا نواجه القوى الجامحة التى تحاول ان تفرض الفناء والابادة علينا

فهل تغيرت اساليبنا ؟

وهل استيقظ النائم ؟

وماذا سيأتى به الغد ؟

هذه اسئلة يجيب عليها المستقبل

٦ — ستتغير الدنيا بعد عشر سنوات وستفرض على شعوب الارض أنواع جديدة من الحياة وضروبها وسيلقن الزعماء والقادة

أشياء يتفوهون بها فيقولون انها من عند أنفسهم ولكنى مطمئن الى حقيقة ثابته : هى

سيرى قارىء هذه الابحاث انى لم احاول تضليله بتغيير الحقائق او التجنى على الحق وقد يأتى ناقد فيقول انى كنت مخلصا مع نفسى اولا ثم مع القارىء فهذه كلمه حق اريد بها الدفاع عن حق .

والصلاة عليكم ورحمة الله وبركاته

جيزة القسطاط فى شارع الاهرام / ٤٠
١٢ شوال سنة ١٣٦١
١٧ اغسطس ١٩٤٨

احمد رمزى
مراقب
مصلحة التشريع التجارى والملكية الصناعية
بوزارة التجارة والصناعة

بحث فى الاستعمار الاوروبى
وسيطرته على العالم

١ — مشاكل العالم الجديد

حينما ندرس حالة العالم بعد الحرب الأخيرة يتبين لنا بوضوح أن تاريخ الانسانية لم يعرف عهداً مملوءاً بالمشاكل والمتناقضات والانقلابات المتتابعة والتغييرات السريعة التى تنفرد بخروجها عن كل قاعدة ومخالفتها للمألوف والمعهود مثل الذى نراه أمام أعيننا اليوم.

٢ — صعوبة الدرس

هل بوسعنا أن نستخلص بعض القواعد العامة أو الاتجاهات أو نضبط شيئاً من العلائق التى تربط بين الأسباب بعضها مع بعض أو بين الأسباب والظواهر، أو نستبق الحوادث فنكشف عن نتائجها، أو نتنبأ بما قد تأتى به الأيام المقبلة.

٣ — أثر القرن الماضى :

يصعب استخلاص شيء من ذلك الآن نظراً لتتابع الحوادث؛

وتطورها السريع إلا إذا حرصنا على بحث الظروف التى مرت بالعالم بين حربين. وكشفنا عن الدروس التى ألقاها علينا تاريخ القرن الماضى بأكمله، فقد تساعدنا على إلقاء نظرة تمهد لنا الطرق وتسهل السبل لتكوين فكرة تقرب من الصواب، تهدينا إلى تحديد بعض النتائج التى حصلت عليها الإنسانية بعد خروجها من حربين عالميتين.

نقرر ذلك لأن الفترة التى تقع بين ١٨١٥ — ١٩١٤، أى بين مؤتمر فينا، وإعلان الحرب العظمى الأولى، كانت مملوءة بالحوادث الكبرى فهى قد بدأت بتأكيد مبدأ القوميات والمناداة بتحرير الشعوب واستقلالها فى أوربا، ثم خضعت لفكرة حفظ التوازن بين الدول الأوربية الكبرى ثم كانت فترة الثورة التى نقلت أوروبا من عهد الاقطاع وبقايا القرون الوسطى إلى عهد الصناعة الآلية وما يلازمها من تنازع الطبقات وتضخم المدن الكبرى ونمو الرأسمالية وبروزها كعامل أساسى انشائى فى حياة الشعوب الأوربية.

٤—التوسع الاستعمارى الجارف :

وكانت هذه الفترة كل هذا ولكن أكبر مظاهرها هو أنها كانت عصر التوسع الاستعمارى الجارف فما معنى هذا ؟

أن الذى يبدو لنا فى عام ١٩١٤، وظاهراً ملموساً هو أن الدول التى توسعت فى أملاكها وازدادت علاقاتها بالأمم والمغلوبة والمحكومة على أمرها، قد أخذت تتحول من دول أوربية إلى دول ذات صبغة عالمية

ويهمنا أن نعرف كيف تمّ هذا التحول، وكيف دخلت الدول الكبرى ميدان الاستعمار فأصبحت غير قادرة على التراجع من ساحته، والانكماش على نفسها بعد أن ذاقت طعم حلاوته.

كل هـذا يمكن تحديده ودرسه ؛ إذا عرفنا شيئا عن اتجاهات هذا القرن الماضى والتطورات التى تمت فى أثنائه.

٥ — الاستعمار قديم فى مساوائه :

فمن المسلم به أن بعض الدول كانت تملك المستعمرات ؛ وكانت تعرف طريقة استغلال الأراضى والشعوب — قبل العهد الذى أفردنا التكلم عنه — ولـكن نشاطها كان محدودا وفى دائرة ضيقة ولم يكن اتصال هذه الدول بمستعمراتها أو اعتمادها عليها بالقدر الذى وصلت إليه فى الفترة الأخيرة بل كان الاستعمار يجتاز أدوار المحاولات البدائية ، ويتعثر فى تجاربه التمهيدية التى تحمل روح المغامرة الأولى.

٦ — عصر السيطرة :

أما فى الفترة التى أشرنا إليها فقد وصل الاستعمار إلى أوجه الأكبر حتى أن البشرية لم تعرف فى كل أدوار تطورها وكفاحها وفى كل عصورها السالفة بغير استثناء زمنا خضعت فيه شعوب الأرض المختلفة بمدنياتها وتقاليدها بل من نواحى انتاجها الحكم بعده

أوروبا مثل العهد الذى جاء بين ١٨١٥ — ١٩١٤

٧ — تسابق وتنافس وتزاحم :

فى هذه اللفته من الزمن اشتد التنافس والتسابق والتزاحم بين دول أوربا الكبيرة والصغيرة القديمة منها والناشئة على احتلال الأراضى وتقسيم القارات لدرجة أن وصل إلى المناطق المتجمدة والصحارى القاحلة فأصبح الجليد والصخر والرمال وجزائر البحار ميدانا لكل هذا ومحلا للنزاع والاطماع ورفع الأعلام وتقسيم مناطق النفوذ بالمعاهدات والاتفاقات .

٨ — ما هو مركز الشعوب والحكومة :

فكل بحث أو دراسة لشئون العالم وكل كفاح فى سبيل تحرير الشعوب وإنقاذها من براثن الاستعمار ومشاكله يجب أن يسبقها تعرف هذا التوسع وأثره وأهميته ومداه لكى نستخلص القواعد الأولية التى تعرفنا العلاقة بين الشعوب المحكومة والدول الحاكمة وهى التى تنير بصيرتنا وتحدد مركزنا إزاء أوروبا لكى يركز على أساس منطقى معقول موقف الأجيال القادمة من هذه السيطرة وعلاقتها بما يجيش بصدور الشعوب من آمال وما ترجو الوصول إليه من أهداف حتى تحرر نهائيا منها .

وأول ما يتبادر إلى الذهن هو التساؤل عن أثر هذا التحول

أو التطور العالمي الذى كان من نتيجته أن انقسمت الإنسانية إلى فريقين
١ — أمم قوية سائدة مستعمرة
٢ — أمم ضعيفة خاضعة : لا تجد رغم جهودها الفرص اللاحقة الاولى .

٩ — أثر السيطرة الأوربية :

فلنكن هنا صريحين أمام الحقائق وإن كانت مرة علينا .
كان من أثر هذه السيطرة أن تحطمت المدنيات القديمة التى كانت سائدة فى قارات العالم بل اندثرت وتلاشت بقاياها وآثارها وأنظمتها أمام مدنية الأوربيين وتفوقهم المادى والعسكرى .

١٠ — نتائجها السلبية والإيجابية:

ان الأثر السلبي كان مظهره ضياع استقلال الشعوب الأسيوية والافريقية وفقدان حريتها وتصفيه الطبقات الحاكمة فيها فلم يعد فيها رجال من الصف الأول وهذا النوع من القادة هم عدة الشعوب ودرعها
أما الأثر الإيجابى فهو أن السيطرة الأوربية اقترنت بزيادة السكان فى المستعمرات بل أصبحت هذه الزيادة مظهرا من مظاهر الإستعمار الأوروبى ويرجع هذا إلى التقدم المادى وحالة الاستقرار التى فرضتها الدول الحاكمة حتى لقد لاحظ الاجتماعيون أن هذه الزيادة فى سكان المعمورة لم تعرفها الانسانية من قبل فى أى عصر من عصورها السالفة[1].

(١) لا يزال الجزء الغربى من آسيا ووسطها ناقصا فى السكان : فلم تستعد تركيا وإيران والقوقاز واراضى التركستان ما كانت عليه من العمران فى السابق

ثم كان من نتيجة هذه السيطرة وما تبعها من تنافس وتغلغل فى جهات مختلفة ان ارتبطت أنحاء العالم بطرق مواصلات سهلة كانت أولى آثارها ان خضعت الشعوب خضوعاً أعمى أمام القوة إذ فشلت كل محاولة للثورات واستعمال القوة وأصبحت علاقات الشعوب مع القوة الغاصبة هى علاقة التابع للمتبوع .(١)

فهذه ناحية سلبية تقابلها أخرى إيجابية تتخلص فى أن هذه الأمم التى جهلت بعضها حيناً والتى تنافرت فى الأعصر السالفة وجدت نفسها تحت الاستعمار الأوروبى وما أدخله من سهولة الانتقال فى مركز يسمح لها بالتعارف واستعادة العلاقات والروابط التى كانت قائمة بينها يوماً ما ثم انقطعت .

١١ — العلم والاقتصاد سلاح المستعمر :

استقرت سيادة الأوربيين وسيطرتهم على الأرض بتفوقهم العسكرى ومقدرتهم على استعمال الأسلحة الحديثة وأمنوا أن تقوم الشعوب عليهم حينما أخذوا بأنظمة تجنيد المرتزقة وكتائب الشعوب الملونة فألقى عبء القتال واستتباب الأمن عليها ونزلت تكاليف الحكم والإدارة إلى أدنى ما يمكن أن تصل إليه فانتقل الإستعمار من ميدان الفتح واستعمال العنف إلى طور جديد هو الاستعانة بالعلم والاقتصاد على تنظيم استغلال المستعمرات وثرواتها المعدنية والزراعية على أسس جديدة

(١) يخيل للكثيرين ان عهد الاستعمار قد انتهى ، اما نحن فنرى ان ابعد البلاد الآسيوية او الافريقية قد اصبحت تحت رحمة المستعمرين فى أى وقت شاؤوا قذفوها بقنابلهم .

أى اتجهت الحكومات وهيئاتها الاستعمارية إلى تحقيق فكرة سيطرة الإنسان على مرافق الحياة وإخضاع الطبيعة لسلطانه وأرادته بكل مافى العلم من قوة ثائرة Révolutionnaire ومافى الاقتصاد من قوة منتجة وأخذت هذه الاتجاهات تتطور بسرعة فائقة حتى أخذت مظهر الاندفاع للسير بهذه النهضة نحو تحقيق أهداف عالمية.

١٢ — الدراسات العلمية فى خدمة الدول المستعمرة لحكم الشعوب :

أما من الناحية السياسية فقد أخرج القرن الماضى لدى الدول التى تقدم لديها الوعى الاستعمارى نشاطاً أشد خطراً من الأسلحة وأمضى وأعمق أثراً هو الدراسات العلمية والنفسية وتطبيقها على إدارة المستعمرات وفى حكم الشعوب المغلوبة على أمرها[1].

لقد أصبحت هذه الدراسات أقوى دعائم سيطرة الأوربيين ودليل تفوقهم ومقدرتهم على قيادة الشعوب التى يحكمونها وتولى مقاليد زمامها فكانت النتائج التى وصلوا إليها كنجاحهم أمام إحدى مظاهر الطبيعة التى ألانوا قناتها وأخضعوها لمشيئتهم فى عالم الجماد والحيوان فطبقوها تباعاً على فريق من بنى الإنسان الذين أوقعتهم الأقدار تحت أحكامهم.

١٣ — النظام الاقتصادى فى القرن الماضى . « الباب المفتوح »

ومع توالى نجاح الاوربيين فى عملهم أصبحت مشكلة المستعمرات كبرى

(١) يفهم من هذا أن للاستعمار فلسفة : واول من هم فى حاجة لدروسها زعماء وقادة الامم الشرقية حتى لا يلازمهم الفشل و تلاحقهم الاخطاء .

مشاكل العالم المتمدين لأنها وليدة النظام الاقتصادى الذى ساد الدنيا بين حربين وكان من آثره تلك الأزمات التى عانتها الانسانية فى العالم الرأسمالى بعد أن أصبح مكونا من مجموعات كبرى ذات صبغة عالمية يسودها التنافس.

أما فى القرن الماضى فقد كان النظام السائد فى عالم الاقتصاد هو نظام الباب المفتوح وهو يتلخص فى أمرين حرية البحار وحرية التجارة ثم التكافؤ فى المعاملة أى محاربة الاحتكار والمعاملة الممتازة وفتح الأبواب المغلقة وتكسير الأسوار الفولاذية التى تفرضها بعض البلاد وتتمسك بدرجة من الاستكفاء وبما لديها.

فالبوارج الحربية من مختلف الجنسيات الاوروبية التى قذفت بقنابلها موانى الصين واليابان فى القرن الماضى كانت فى عدوانها تقرع الأبواب المغلقة وتفرض سياسة الباب المفتوح — وفى مصر كان تساهل الدبلوماسية الأوربية لبقاء الاحتلال البريطانى يلازمه دائما اشتراط العمل بسياسة الباب المفتوح وأخذ الضمانات على الأنجليز ألا يكون لهم مركز تجارى ممتاز أو أكثر رعاية فى الشئون الاقتصادية والمالية عن غيرهم ولذلك بقيت حرية الحكومة المصرية فى فرض الضرائب الجمركية وزيادتها مقيدة كما كانت فى السابق أيام السيادة العثمانية رغم سيطرة البريطانيين المباشرة وتدخلهم بغير حق بوجود جيش الاحتلال.[١]

---

(١) ستحطم هيئة الأمم المتحدة . بسياسة الباب المفتوح الاسوار الفولاذية والكتل الاستعمارية لفرنسة وهولنده والبرتغال : خدمه للاستعمار الانجلوسكسونى

وكانت سياسة الباب المفتوح إحدى دعامات القوة البريطانية الاستعمارية بل استغلتها بريطانيا استغلالا شائنا كلما أرادت التدخل فى الشئون الداخلية للامم أو إيجاد مبرر لسياستها معتمدة على أنها تعمل بوحى الرغبة الدولية العامة لاحترام مبادىء وقواعد وضعت لصالح المجموع الدولى الأوروبى.

١٤ — النظام الاستعمارى يحتم الخروج عن هذه القاعدة :

وحينما تقدمت الدول الاوربية فى طرق استغلال اراضيها بالمستعمرات وكثرت مواردها وزادت ثرواتها زيادة هائلة، تطورت علاقاتها مع ممتلكاتها وسارت اشواطا نحو الوحدة الاقتصادية أو ما يشبه الاتحاد والتكتل بين الدولة الأوروبية وما يخضع لها سياسيا من الأقطار فيما وراء البحار.

وأدى هذا التطور إلى أن أخذت كل وحدة تطمع فى الاستكفاء بنفسها والاستقلال بمواردها.

وظهر هذا الاتجاه فى ناحيتين.

الأولى - أن الميزان التجارى الذى كان يعتمد على حرية التجارة خضع لمقدرة الدول الاستعمارية واستعدادها لتصريف الفائض من منتجاتها الصناعية فى المستعمرات التى تملكها.

الثانية - أن المواد الأولية التى كانت من المبدأ تحت متناول يد

بقية العالم عملا بمبدأ حرية التجارة أخذت تنحصر رويدا رويدا في الأقاليم الأفريقية والإسيوية وغيرها بيد رجال وشركات الدولة الحاكمة فأصبحت بعد مرور سنوات قليلة محتكرة بيدها وبعيدة عن ومتناول الأسواق الحرة .

ولما كان كوكبنا الأرضى محدود المساحة ولم تبق منه بقعة خالية لم يرفرف عليها علم أحمر أو أزرق أو أخضر ولم يبق شعب من الشعوب إلا وأوقعه الحظ السيء تحت سيطرة أو حماية أو وصاية جمعت الدول الاستعمارية ثروات طائلة من احتكارها لهذه المواد وكان من الطبيعى أن تتلاقى القوى الاستعمارية على حدود مناطق لا تتعداها وإلا تصادمت مع قوة لا تقل شأنا عنها .

١٥ — التنافس فى دائرة التوازن بين القوى :

انتهى التوازن الأوروبى إلى توازن عالمى مسلح وأدى التوسع الاستعمارى إلى تنافس سلبى ظهرت بوادره ابتداء من القرن العشرين فشكلة فاشودة المعروفة تمثل القمة فى التنافس الفرنسى البريطانى على اقتسام مناطق افريقية ثم تلاقت الكتلتان الاستعماريتان فى اتفاق سنه ١٩٠٤ المشئوم الذى اطلق أيدى فرنسا فى شئون سلطنة مراكش واعترف بمركز بريطانيا فى مصر واوجد الحلول للمشاكل الاستعمارية بين الكتلتين .

ويعتبر اتفاق ١٩٠٧ بين بريطانيا والروسيا حلقة أكملت الاتفاق الأول إذ أنه جعل من إيران مناطق نفوذ وحدد الموقف ازاء أفغانستان وأقاليم أخرى فى آسيا وسد الباب على هذا التلاحق والتنافس أو قل ابعد الاحتكاك بين قوتين استعماريتين تخشيان الحرب والتصادم فيما بينهما .

ومع قيام مثل هذه المعاهدات والاتفاقات فإن التنافس بقى قائما بين هؤلاء المستعمرين وغيرهم ووصل إلى مداه قبل الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ وظهرت بوادر التسابق على اغتصاب المواقع ذات الاهمية الاستراتيجية واحتلالها وتحصينها خصوصا التى تسيطر على طرق الملاحة والمواصلات الدولية استعدادا للحرب التى كانت لاشك آتية .

١٦ — أوروبا تخوض الحرب العالمية الاولى وهى فى عنفوان قوتها .

كانت أوروبا فى عنفوان قوتها ومجدها وسلطانها وقد ورثت الأرض ومن عليها حينما قامت الحرب العالمية الأولى وكانت حربا قاسية ضروسا خسرت فيها الدول الاوروبية زهرة شبابها ولما وضعت الحرب أوزارها كانت أوربا كمركب شراعى كبير يخرج من وسط أعصار هائل .

وكان من مظاهر هذه الحرب أن شعوب المستعمرات شاركت

الامم الأوروبية القتال فيها بأموالها ورجالها والغريب أن نتيجة هذه المساعدة كانت وخيمة على هذه الشعوب إذ بمقدار عظيم الضحايا التى بذلت والخدمات التى ادتها المستعمرات ، زادت أطماع الدوله الحاكمة فى التمسك بها والتحكم فيها .

١٧ — متاعب أوربا :

وظهر جليا بعد الحرب أن أوربا تحطم فيها أكثر ما خلفته القرون الماضية من انظمة اجتماعية وسياسية واقتصادية .

فلو قدر لمترنخ الوزير النمساوى أو لغيره من أساطين ومماردة الرجعية الذين خُيّل إليهم أن الاقدار تسير طوع ارادتهم ، أن يروا بقايا الانقاض والخرائب التى تركتها الحرب وذلك الفراغ الهائل فى نفسية الشعوب ومثلها العليا وكيف كانت هذه الامم قاب قوسين أو أدنى من الدمار والانحلال إذن ليصعب عليهم أن يجدوا أثرا من الانظمة التى فرضوها على هذه الشعوب فى مستهل القرن الماضى .

لقد تحررت اوروبا من آثار القرن التاسع عشر وتقاليده ولكنها لم تهنأ بحالتها الجديدة إذ دخلت عصرا شعرت فيه لأول مرة بالفقر المادى والمعنوى وواجهت نوعا من المتاعب والمشاكل لم تألفه فى ماضيها فهى لم تستعد قوتها السالفة ولم تأت لها الأيام بالسلم والراحة والطمأنينة التى كانت تحلم بها طول أيام الحرب .

كانت العشرون عاما التى اعقبت الحرب العظمى كشريط سينمائى للحوادث استمر يعرض علينا مصائب الشعوب ومشاكل الحدود والاقليات والثورات المتتابعة [١].

وكان البلقان فى القرن الماضى يحمل هذا الطابع فأصبحت اوربا بلقانا ثانيا الآن ما أثارته الحرب وسنوات مابعد الحرب من المشاكل والشكوك والريب والأطماع كانت اضعاف ماعرفته اوربا فى قرنين من الزمن وقد جاءت هذه كلها وجراح اوربا لم تلتئم بعد فكانت شديدة الوقع على الشعوب ومقدراتها.

كانت أوربا قبل الحرب ست دول عظمى هى بريطانيا وفرنسا وروسيا ثم المانيا والنمسا والمجر وايطاليا هى التى تسيطر على الحرب والسلم وتقيم سياستها على قواعد الدبلوماسية السرية وأساليبها الملتوية وانتهت الحرب فاذا أكبر متاعب اوربا تسببها مجموعة من الشعوب الصغيرة التى أوجدتها معاهدات الصلح دون أن تستند على دعائم تاريخية ثابتة أو أسس راسخة فهذه الدول المرتجلة أمضت العشرين عاما بين الحربين تتأرجح بين التيارات المختلفة فهى لم تثبت على مبادىء واحدة ولم تنهج سياسة معينة وكما كانت فى الماضى ستكون فى المستقبل من اهم العوامل التى ستثير الحرب العالمية الثالثة.

فقد كان تنازع هذه الدول على مقاعد عصبة الأمم يضحك اوربا

---

(١) ان الفراغ الذى تركته امبراطورية هبسبرج فى وسط اوروبا : قد اعترف به أولئك السياسيون الذى نادوا بتحطيمها — واليوم يعترف الانجلوامريكان بخطأهم فى اضعاف المانيا وتحطيمها.

كما كان اجتماع مجلس التحالف الصغير المكون من تشيكو سلوفاكيا ويوجو سلافيا ورومانيا لتهديد حكومة المجر المجردة من سلاحها يدل على شجنعة ولكن هذه الجرأة لم يجد لها العالم من أثر حينما انفض المجلس وتضاءل وانكمش امام قرار ضم النمسا لالمانيا الكبرى واحتلال تشيكو سلوفاكيا : لقد انتهى التحالف الصغير وسط ضحكات السخرية والتهكم وقتئذ .

فهذه الشعوب والدول الصغرى كانت تسبب الكثير من الضجيج ولكنها لم تكن يوما ما مستقلة فى سياستها ولم تكن مخلصة للمواثيق والعهود التى قطعتها على نفسها بل ستبقى فى المستقبل كما كانت فى الماضى العوبة بيد الكتل الكبرى .

١٨ — التهيئة للتركيز الاقتصادى فى الكتل الكبرى :

فقدت أوربا مركزها الممتاز وسط الفوضى التى كانت سائدة فيها بانهيار القوة التى كانت تمتلكها شعوبها أمام العالم ، ولذلك اتجهت الدول العظمى الاستعمارية إلى دعم مستقبلها معتمدة على عوامل عالمية أو كونية أكثر منها محلية أو أوروبية ، وكان التفوق الصناعى والمقدرة الرأسمالية تسير بالدول الاستعمارية نحو التركيز الاقتصادى أو فى طريق خلق نوع جديد من الامبراطوريات الاقتصاديه أو الوحدات المكونة من مجموعة من الدول والأمم التى وإن كانت

غير مرتبطة سياسيا فهى متعاونة اقتصاديا وماديا وهذه كانت بداية الـكتل الـكبرى التى ظهرت فى العالم ونراها اليوم فى عنفوان قوتها.

١٩ —خروجها من الأزمات ومواجهتها للمتناقضات :

ولم يكن هذا التوجيه فى حلم أحد من الناس بل هو النتيجة الطبيعيه للعوامل التى سببها التوسع الاستعمارى الجارف وهذا التطور الذى صحب العالم وبينما كانت هذه الأمم فى غمرات هذه الفترة تسير بخطوات واسعة نحو تأكيد سيطرتها معتمدة على تفوقها ظهرت المتناقضات فى أنظمها الاقتصادية [1].

فالأنظمة الرأسمالية وقواعد استثمار المواد الخام وكذلك شركات البترول العالمية لم يفكر أحد من رجالها فى الأزمات المتتالية التى بدأت سنة ١٩٣٠ وغمرت أمريكا وأوروبا وهددت بالإفلاس المؤسسات الإقتصادية والمالية الـكبرى فلم تكن هذه الرجات أوروبية أو أمريكية أو محلية حتى يمكن تلافيها بل كانت عالمية تشبه السنوات العجاف التى تحدثت عنها الـكتب السماوية .

كانت هذه الأزمات الواقعة بين حربين امتحاناقاسيا للأنظمة الرأسمالية وهيكلها الاقتصادى ولقوة المقاومة لدى الدول الـكبرى ثم كانت أهم من ذلك إذ برهنت على قوة الرأسمالية واستعدادها للخروج منتصرة من وسط الأزمات وقابليتها لمواجهة المتناقضات

(١) تظهر المتناقضات فى تنظيم الاستعمارى لـكل دوله بين فى المجموع الاقتصادى كله نتيجة لسياسة التكتل الانفرادى لـكل كتلة من المستعمرات

وهى ميزة لم تتمكن الشيوعية بعد من إثباتها أو البروز بها رغم خروجها منتصرة من الحرب الأخيرة .

وكانت هذه الأزمات دافعاً قوياً أقنع بريطانيا وأمريكا أن مستقبل العالم يتطلب تفاهما وتعاونا وتكاتفا بين حكومات الأنجلوسكسون وبدت هذه الظاهرة واضحة لمن أنصت إلى خطاب الرئيس ويلسون سنة ١٩٣٦ وهذا التفاهم هو الذى أدى إلى دخول الولايات المتحدة فى الحرب وهو الذى جعلها تقف فى صف بريطانيا بعد انتهائها لمواجهة مشاكل العالم الجديد . والذى سيحتم يوماً تأليف كتلة منهما ازاء السوفييت

٢ — نظرة شرقية للعالم بين حربين :

لم تحصل أمم العالم على شىء من حريتها بعد الحرب الأولى ،وبقيت كما كانت خاضعة لسلطان أوروبا ودولها[1] ومع هذا كان يبدو للناظر أن الدنيا يغمرها طوفان أو فيض هائل من خيرات الله ، ولم يحدث فى العالم أن وصلت مستخرجات المواد الأولية إلى ملايين من الأطنان من كافة الأصناف إلى ما وصلت إليه فى السنوات العشر بين سنة ١٩٢٠/١٩٣٩ ، وما يقال عن المواد الأولية يقال عن المنتجات الزراعية والصناعية وغيرها مما تخرجه الأرض وتصنعه يد الإنسان ويقابل هذا الفيض العظيم حرمان غريب فرض على أكثر من

(١) استعملت مبادىء ولسون لتحرير شعوب المستعمرات وطبقت فى اوروبا فسببت قيام الحرب الثانية .

ثلثى الإنسانية الذين يعيشون فى مستوى من الفقر والفاقة لا يتناسبان مع المستوى اللائق بانسان ففى الوقت الذى كانت فيه ثروات العالم وخاماته تنقل بانتظام على البواخر بين القارات وصل استغلال الشعوب الاسيوية والأفريقية وبعض الامريكية الى منتهاه بل الى درجة لم تعرفها الارض قبل ذلك وفى الوقت الذى كانت الدول الحاكمة تصرف الملايين على بناء الاساطيل وعلى ميزانيات الجيوش كانت هذه الاجزاء المغلوبة على أمرها تعانى من ويلات المجاعات والأوبئة وتخسر من ابنائها مالم تكلفه الحروب من خسارة فى الارواح وكان مايصرف على انشاء بارجة واحدة يكفى لتعليم ابناء أمة ترزح تحت براثن الاستعمار وما يصرف على فرقة دبابات مدرعة يكفى لا يواء أهل مدينة واسكانهم فى منازل تشبه البيوت التى يسكنها الناس فى أوربا وامريكا أن التسليح الجارف استهلك أحسن ما اخرجته عقول البشر وافقر الانسانية وجعل بقاعا من الارض تستمر خرابا الى اليوم .

ان أكبر متناقضات المدنية الحديثة مدنية الرجل الابيض سواء اكانت رأسمالية أو شيوعية ديموقراطية ام نازية هى أن غالبية سكان الأرض لا يصيبهم منها سوى النزر اليسير ان لم يكن أقل من اليسير من الفيض الذى تخرجه اراضى بلادهم فسواء كان الاستعمار اوربيا

أو امريكيا أو سوفييتيا فهو واحد لا يتغير ويصدق فى سكان المستعمرات والبلاد المحكومة قول الشاعر العربى .

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما   والماء فوق ظهورها محمول

ولنضرب لهذا مثلا عن سكان الأرض وتعدادهم وهو لا يقل عن ألفى مليون نسمة ثم خذ المستوى فى بلد من بلدان المستعمرات فى آسيا وافريقية ، أو فى بعض بقاع أمريكا الجنوبية نجد أن أكثر من نصف السكان من رجال ونساء وأطفال شبه عراة وهذا مما يجعل أكثر[1] من نصف الإنسانية فى حاجة إلى الكساء بينما كانت آلاف الأطنان من القطن الخام يحرق فى المزارع الأمريكية من أجل نصف ريال يدخل فى جيوب المنتجين .

ولا تزال مشكلة نقص الغذاء تشغل العالم وهى مشكلة مخيفة إذا درسناها على ضوء الدروس التى تلقيها مصر فى أدوار الغلاء والمجاعات التى مرت بها فى السابق وهبط بسببها عدد السكان وخربت مناطق كانت عامرة فى شمال الدلتا ، وفى مديرية البحيرة ، وعلى الطريق بين الأسكندرية وبرقة [2] .

ولا تزال ذكرى مجاعات الصين والهند تعاودنا ، ولا يمر عام رغم ارتباط العالم وسهولة مواصلاته دون أن تسمع بإصابة المناطق الروسية بقحط شديد : حتى فى سنوات الخصب والرواج تجد أن

---

(١) يقدر الكاتب الامريكى إستورداد عدد الشعوب الملونة بأكثر من نصف سكان الارض (٢) راجع كتاب المقريزى (اغاثة الامه بكشف الغمة)

أهل المستعمرات لهم تصيبهم من قلة الغذاء ونقصه ، بل ذكر كثير من رجال الاستعمار أن هناك ملايين من بنى آدم لا يصيبهم غير وجبة واحدة وضئيلة فى اليوم الواحد ، وكثيرا ماتكون مكونة من المرق وقليل من الأرز بينما هناك الأطنان من المواد الغذائية كانت تستعمل للحريق فى القاطرات والبواخر لأن بلادها تريدأن لاتخسر ريالا من أثمانها

وإذا كان الاستعمار من وسائل تعذيب الشعوب لخدمة دول معلومة ، أو طبقة حاكمة فيها فإن الاتحاد السوفيتى ضرب مثلا فى تعذيب ١٨٥ مليونا من الناس لتطبيق نظام خاص فإن المبالغ التى صرفها الاتحاد على المزارع التعاونية والنموذجية وإدخال الصناعات قد نقلت فعلا الاقتصاد الروسى إلى الأمام ، ولكنها اشتريت بثمن فاحش وبحرمان الشعوب من حق الحياة الحرة ، وهل يمكن معرفة عدد السعداء حقيقة بين حدود حكومات الاتحاد السوفيتى .[١]

مهما كانت الظروف المحيطة بالعالم اليوم وهى لا شك غير مشجعة فقد كانت مثل هذه الظروف سائدة قبل الحرب ، ولكن النيات كانت راغبة فى الخروج من هذه الحالة أما اليوم فلا توجد هذه النية . بل كل الدلائل تقنع باقتراب العاصفة ففى تلك الأيام قامت الدعوة لعقـــد مؤتمر اقتصادى عالمى فى مدينة

---

(١) خصوصا بين شعوب آسيا الوسطى والقوقاز والقرم الاسلامية .

لندرة ولم يأت الاجتماع إلا بعد أن توالت النكبات وتعاقبت الأزمات قبل سنة ١٩٢٣. وكان الغرض الخروج من حالة مبهمة .

وتعود بى الذاكرة لاقتناص بعض ماوعته نفسى ، فإنى رغم ابتعادى عن التفاصيل اذكر مبدأين نودى بهما وقتئذ .

الأول ـ أن بقاء الاتحاد السوفيتى يحكم سبع الأرض المعمورة تحت انظمة تجعل منه بقعة بداخل سور فولاذى ، ويمنع أهله عن الاتصال والأخذ والعطاء مع الأمم الأخرى [١] قد أخل بالتوازن الاقتصادى العالمى ، وان الأمم لن يتحقق لها الخلاص من الأزمات إلا إذا عاشت الدنيا تحت نظام متجانس . وقال الآخرون إن علة المدنية الحالية هو كثرة الانتاج ، وإن علاج الأزمات هو رفع مستوى الجماعات البشرية التى تعيش فى المستعمرات ووضعها فى مستوى يسمح لها أن تبيع وتشترى وتحيا حياة الانسان وهذا هو المبدأ الثانى .

أما النظرة الشرقية بعد هذا فترى أن الحياة لا تحتمل كل هذه المفارقات وأن مايصرف على الأساطيل والجيوش هو مثل مايصرفه السوفييت على جيوشهم ومزارعهم ومصانعهم تدفع ثمنه البشرية من حرمانها فلا يرتفع مستوى الجماعات فى المستعمرات إلا اذا وطنت الأمم الأوربية نفسها على السلام لأن الأسلحة التى تجمعها هولاندة هى من دماء اندونيسيا والغريب أنها توجه فى النهاية إلى صدور الأمم المظلومة

(١) لاتزال هذه الفكرة قائمة الى اليوم وهى المحرك الاساسى للحرب القادمة

والصناعات التى يقيمها السوفييت ويبذلون الجهود من أجلها قد يسهل على الآخرين إقامتها وإنشاؤها فى روسيا بتكاليف أقل وبدون أن تتحمل الشعوب السوفيتية هذا الاجهاد الهائل والحرمان الدائم . إنك تحكم على فرد بالأشغال الشاقة مدة طويلة لتعده بأن يملك يوماً عمارة أيمو بيليا مع أن فتح هذا السور الفولاذى من حولهم يعيد الحياة إليهم ؛ ويجعل من الدنيا موطناً واحداً للبشر كافة وهذه رسالة الرأسمالية فى نظرهم .

كان مؤتمر لندرة الإقتصادى كسوق قام ثم انفض ولم يربح فيه أحد فلم تحل مشكلة المواد الأولية لأنها أساس الاستعمار وبقيت هذه المواد وأصحابها : أى سكان البلاد المظلومة على الحالة التى وجدهم المؤتمر عليها ، ولم تلتق نظريات الروس مع عالم رأس المال ، ولم تتق حتى الأمم الرأسمالية عند فكرة واحدة ولو أمكن الإنفاق على المواد الأولية ورضيت الدول الاستعمارية أن تشترك معها بقية الأمم فى شىء من خيرات الأرض لما قامت الحرب العالمية الثانية . وهكذا تفرعت اللجان فى المؤتمر وتوزعت الأعمال ووضعت التقارير . وخسر العالم آخر فرصة لإنقاذ السلم إذ بعد فشل مؤتمر لندرة سنة ١٩٣٣ تسابقت الدول إلى التسليح واستعدت للحرب العالمية التى بدأت منذ سنة ١٩٣٣ ولم تلته بعد .

قامت هذه الحرب والعالم مكون من عدة كتل تختلف قوة وهى :

١ — الولايات المتحدة وممتلكاتها ودول الأمريكيتين .

٢ — بريطانيا وأمبراطور يتهاو أصدقاؤها ومعها هو لاندة، ومستعمراتهاوالبرتغال ومستعمراتها.

٣ — وروسيا فى أوروبا وآسيا .

٤ — فرنسا ومستعمراتها وفيها بلجيكا وتوابعها .

٥ — اليابان والشرق الأقصى .

٦ — ثم إيطاليا تحاول أن تبنى لها أمبراطورية .

أما بقية العالم فاستمر حائراً ينظر إلى المستقبل بأساليب القرن الماضى أحيانا وكانت المانيا تسير بخطوات جبارة وهى التى تملك أكبر جهاز صناعى فى أوربا ولا ينقصهاسوى المستعمرات لتكوين أكبر الكتل العالمية وهذهسرقت منها فى فرساى ولما وفقدت الأمل فى أخذالمواد الأولية بالسلم فى مؤتمر لندرة استعدت أن تأخذها بالسيف وكانت اسبانيا فى موقف أمة شرقية تحاول أن تقلد الغرب وتنام مل‌ءجفنيها لتحلم بالارمادا تمخر البحار وفرديناند(١) وإيزابلا يطاردان الموريسكو(٢) الملعون على سفوح جبال أطلس وكانت إيطاليا لا تنفك تردد أغنية الأمبراطورية الرومانية فى الصباح والمساء حتى ضج الناس من روما ومجدها وشرائعها وكان للتحالف الصغير مشكلة تقلق مضاجع كل من رومانيا وتشكوسلوفاكيا ويوجوسلافيا هى قبعة الأمير الطفل الوارث لعرش هابسبرج وكانت بولونيا

(١) اسم ملك اسبانيا وملكتها اللذين طردا العرب فى عهدها .

(٢) الاسم الذى يطلق على المسلمين .

فرنسية عاما حيادية عاما وانتهت إلى أن جعلها الكولونيل بيك وزير خارجيتها حليفة لألمانيا ثم دهمته الطائرات الألمانية حتى خرج شارداً من بلاده .

هذه حالة أوروبا عند قيام الحرب بعد إن فشلت إجتماعات لندرة لتأليف عالم جديد بالتفاهم والإرادة الحرة ثم ظهر أن الفريق الغالب هو الذى يملك من القوى الإنشائية والدعامات الاقتصادية أكثر من غيره وأن الأسلحة تذوب وتفنى والمبادىء المتطرفة والأحزاب تبلى بجانب هذه السيطرة الصناعية القوية ولذلك أخذت خطوات التكتل تسير بسرعة فائقة فهولانده والبرتغال اتجهتا نحو الكتلة البريطانية وجمهوريات أمريكا الجنوبية التأمت فى النظام الاقتصادى للولايات المتحدة .

وانقسم العالم الرأسمالى شطرين : الذين ملكوا الأرض واستكفوا[1] والذين يرغبون فى المستعمرات وقادت ألمانيا الفريق الثانى وانضمت إليها إيطاليا واليابان وحالفتها إسبانيا وانتهت الحرب فإذا الرأسمالية ممثلة فى كتلتين أمريكا وبريطانيا وذهبت اليابان وإيطاليا وضعفت كتلة فرنسا أمام صيحات موسولينى الذى مات بعد أمضى السنوات يقول :

« المستكفون لا يشعرون بحاجة غير المستكفين » وهذه مع أمبراطوريتها فى الجزء الشمالى من افريقيا موضوع هذا الكتاب .

---

(١) راجع : خطب ومؤلفات موسولينى
Scriti e Discorsi, Benito Mussolini .

القسم الأول

فرنسا ومستعمراتها

هذا بحث تحليلي للاستعمار الفرنسي ومتاعبه ، نعرض له بطريقة اجمالية ، ونستعرض بعد النواحي التاريخية والاقتصادية وأحيانا العسكرية مع الاشارة إلى الوضع الشاذ الذى كانت فيه المستعمرات الفرنسية بين المانيا والحلفاء مدة الحرب الماضية .

إن مالقيته قضية فلسطين فى أمريكا وأمام مجلس الأمن تجربة قاسية للعرب لأن الانتصار على الخصم يستلزم فهم الخصم والالمام بأساليبه . وفى هذه الكلمة أفكار وآراء قد لا تعجب بها ولكنها فى صميم الدفاع عن قضية المغرب وحق شعوبه لأنها مستقاة من أقوال الخصم وهى مدعاة لفهمه ولن تنتصر على خصمك إلا إذا فهمته .

١ — فرنسا ومستعمراتها

كانت فرنسا دولة استعمارية كبرى فى القرن الثامن عشر خضعت لسلطانها مساحات واسعة فى أمريكا الشمالية ، وأكثر من منطقة

غنية من مقاطعات الهند ، ولكنها فقدت هذه المنزلة فى حروب القرن الثامن عشر والثورة الفرنسية فأخذت تجاهد طوال المائة سنة الماضية لكى تسترجع مقامها كدولة استعمارية ، ولقد برهنت تجارب أكثر من قرن على تعذر تحقيق السيادة البحرية لفرنسا ، وكان ضياع المستعمرات البعيدة فى أمريكا والهند كافيا لاقناع الفرنسيين أنه لا يمكن ضمان الدفاع عن فرنسا دون أن يكون لها أسطول قوى يضارع ما للأمم الأخرى ممتلكات .

فكان مما فكر فيه نابليون أن يختصر الطريق البحرى الذى يفصل فرنسا عن الأراضى التى تخضع لها فقاد حملة مصر مؤملا أن يجعل منها قاعدة للتوسع الاستعمارى الفرنسى بالمشرق ، وكانت بريطانيا تعرف أن هذه الضربة موجهة إليها فى الهند فوقفت أمامه ، وقطعت الطريق البحرى عليه ، وأجبرت جيشه على الجلاء ، فالحملة الفرنسية على مصر كانت تجربة برهنت على أن الفن الحربى الحديث قد جعل من السهل التغلب على جيوش المسلمين فى أراضيهم[1] ، ثم فتحت الأذهان إلى استعمار الجزء الأفريقى المقابل لأوروبا ، فهى فاتحة الاستعمار الفرنسى فى القرن التاسع عشر .

ولا تنس أن فرنسا حينما اضطرت إلى اخلاء مصر كانت تفكر فى العودة اليها وتأسيس الامبراطورية الاستعمارية عن طريق البرلمان

---

(١) راجع Hislôny of theEgyplion Revolution عن معركة الاهرام .. A . . A . Paton التى ازالت ما بقى عالقا فى عقول الاورو بيين مدة قرون عده من ان قوة المماليك لا تقهر

أمكن ، أوقل على الرمال التى أرادأن يسير عليها لويس التاسع لفتح مصر فلقى حتفه فى تونس ولذلك اتجهت أنظار رجالها إلى بقعة من الساحل الافريقى تكون أقرب اليهم وأبعد عن اثارة شكوك ومخاوف بريطانيا ، فلم تجد أقرب من الساحل بالجزائر ، اذ هو أسهل طريق للعبور إلى افريقية وأسلم ما يصلح لاتخاذ مرافئه مثل الجزائر ووهران وغيرها كرؤوس جسور للزحف إلى الداخل ، وقد خدمتها الظروف حينما اشتد العداء بين مصر وتركيا فانقسم الشرق على نفسه ، وخلا لها الجو فى الجهة التى تطمع بامتلاكها ، وحينئذ قذفت بجيوشها بين ١٨٣٠ و ١٨٤٧ على القطر الجزائرى فى الوقت الذى كانت جيوش مصر وتركيا تتقاتل قتالا كانت نتيجته أن انتهى بالفشل للجانبين بينما اندفعت هى بقوة لترسيخ أقدام جنودها على الأرض الافريقية ، التى حملت أعلام دول الموحدين والمرابطين ، وكانت فى وقت ما موئلا للعروبة والاسلام فأخذت تحارب أهلها ، وتشتتهم ، ولما انتهت حروب الاتراك والمصريين لم يكن بوسع أحد الطرفين أن يمد يد المساعدة أو يجهر بالدعوة لنصرة المجاهدين من قبائل الجزائر المدافعين عن بلادهم ، فكان أن سلّم الأمير عبد القادر للفرنسيين ، وإذا نحن أمام أول هزيمة للاسلام بشمال أفريقية واذا نحن فى بداية الأرزاء التى أعقبت توغل الفرنسيين فى المغرب ونتج عنها تأسيس امبراطورية ضخمة فى بلاد عربية .

٢ — أوربا تشجع فرنسا فى توسعها خارج القارة الأوربية

وكانت فرنسا فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر أقوى أمم أوربا وأكثرها سكانا إذ بلغت ٢٥ مليون نسمة وهو عدد عظيم لما كانت عليه أوربا فى ذلك الوقت وبذلك تفاءل الساسة الأوربيون بالاتجاه الجديد الذى سارت فيه ووجدوا أن من مصلحة السلام والأمن فى القارة الأوربية تشجيع هذا التوسع والتزام سياسة الصمت إزاء هــــذا العدوان لأنه سيؤدى إلى أشغال قوى فرنسا البرية وإلى توزيع جهود هذه الأمـــة الحربية فى ناحية لا تضرهم خصوصا إذا وجد ضباط الجيش ورجال الجندية الذين أسكرتهم ذكريات الانتصارات الماضية مجالا لنشاطهم فى بلاد بعيدة عن أوربا ، بعد أن دوخوا أمما كثيرة بحروب دامت جيلين ، وقد تم لهم ما أرادوا ، وقنعت فرنسا ورجالها بهذا الدور ، وزاد تمسكهم به ، خصوصـا بعد هزيمة ١٨١٥ .وهزيمتهم فى حرب ١٨٧٠ مع المانيـا

٣ — فرنسا تجعل من أراضى افريقية معسكرا لتموين جيوشها وضباطها

فكان أن أصبحت فرنسا بعد عدة سنوات تملك الشاطىء الافريقى وتسيطر على مناطق وأقاليم متسعة فى الصحراء تتنقل فيها كتائبها ويتدرب قوادها وضباطها بأنحائها على أساليب القتال المختلفة

ويتلقون دروسا عملية باتخاذهم الحروب صناعة دائمة ضد الأهالى ويمتعون أنفسهم بأدخال الجديد كل سنة على كتب التدريب والقيادةوأنظمةتعليم عساكر المستعمرات من الجنود الملونة .

وجاءت الحرب العظمى سنة ١٩١٤ وفرنسا ثانىدولة استعمارية فى العالم فخاضت غمارها وأعلامها تخفق على الكتائب المؤلفة من جنود المغرب ومدغشقر والهند الصينية والسنغال تسوق الالآف منهم إلىالموت وتدفع بهم إلىالصفوف الأمامية ، ثمأمضيتمعاهدة الصلح فإذا بمناطق شاسعة من أملاك المانيا الافريقية تدخل ضمن نطاق الامبراطورية الفرنسية أما عن طريق تعديل الحدود ، أو عن طريق الانتداب جزاء وفاقا على المجهودالحربى الذى بذله جنود المستعمرات من السمر والسود فى كفاحهم لتحرير العالم . فإذا نظرت إلى خريطة لأفريقيه تجد الأمبراطورية الفرنسية كتلةضخمة ملونة بلون واحدتقع جنوب فرنسا وكأنها جزء متممها ، أوامتداد لأراضيها لا يفصلها عنها غير البحر الأبيض المتوسط ، ولكنه طريق سهل قريب لانه يجمع بين الشاطئين فى ساعات معدودة ، وهذه الأمبراطورية أو المجموعة من المستعمرات تبدو أمام الناظر والبحر يحيط بها من ثلاث جهات المتوسط: فى الشمال ، والمحيط الاطلسى فىالغرب والجنوب ، ويفصلها عن بعضهاالصحراء الكبرى

وهى فى صمتها وتحديها للإنسان لاتزال كالربع الخالى فى جزيرة العرب ، تسخر من الإنسان الذى لم يفك أسرارها بعد ولم يخضعها لإرادته فقد فكر المستعمرون فى استثمار أراضيها ، وفى اختراقها بعدة طرق ممهدة للسيارات ، أو إنشاء خط حديدى يقطعها من الشمال إلى الجنوب ، ولم يتحقق للآن شىء من ذلك لأن مجهودات فرنسا محدودة ؛ وهى لن تسمح لغيرها من الدول أن يتولى هذا العمل عنها ، ويخيل إلى الباحث أن هذا العمل الاستعمارى الذى بدأ بعد حروب نابليون طفرة فأصبح حقيقة فى عصرنا الحالى يبدو كعمل عظيم ساهمت فيه أمة برجالها ودمائها وتفكير أبنائها ، وأنه إن دل على شىء فهو يدل على عبقرية الذين جاهدوا فى انشائه وجمعوا بصبر شتاته فحققوا لبلادهم حكم امبراطورية موحدة كافية لاسعاد أى بلدأوربى يمكنه أن يتحول باستغلال خيرات هذه الامبراطورية وثرواتها وأراضيها إلى بلد عظيم فى الصف الأول من العالم .

فهل وصلت فرنسا إلى أن تحكم بعقل وحكمة ودراية هذه الأمبراطورية؟ وأن تحسن سياستها مع الشعوب التى تسكنها ، فتسعدها وتزيد من عدد سكانها ؟ وتأخذ بيدهم فى طريق الحضارة ، والعلم ، والحكم الذاتى ، حتى تجنى مافى هذه الأراضى من الخيرات والثمرات؟

الواقع أن فرنسا لم توفق كثيراً فى مضمار الإستعمار كما يفهمه العالم الغربى ، وإن وفقت فإلى حد لا يتناسب مع جهودها ، أو هو

ضئيل بجانب ما كان يمكن أن تصل إليه ، ذلك لأنها بقيت ولا تزال تعيش على أساليب الماضى فى إدارة مستعمراتها ، وفى علاقاتها مع البلاد الخاضعة ، وإلا فلماذا يواجه الباحث فى أنحاء أمبراطوريتها مايشعره أنه داخل حصن كبير أو معسكر من المعسكرات وحوله نطاق من الأسلاك الشائكة يحرسه جنود من السنغال يسيطرعليهم رجال أشداء ، أعظم همهم قطع كل العلائق بين هذه البلاد والعالم الخارجى ، ولا يعرفون سوى قانون البطش فى علاقاتهم مع السكان .

لماذا يلازم الناس هذا الشعور دائما ؟ لأن عيوب الإدارة الفرنسية للمستعمرات ظاهرة واضحة ملموسة ، وموقف الحكومة المركزية وممثلها يشعرك باستمرار أن فرنسا لم تنجح كأمة حاكمة ولذلك لم تستطع أن تقدم دليلا واحداً على رغبتها فى تحرير الشعوب المظلومة ولا فى الأخذ بيدها فى طريق العلم والنور ولا فى إعطائها ماتطلب من حرية أو حكم ذاتى ، أو اشراكها فى إدارة الأمور العامة ، أو تسليم البعض منها إلى أهلها كما أنها لم تقدم للعالم برنامجاً إنسانياً يمكن أن يحقق شيئاً من ذلك .

إننا لا نقر الاستعمار على أى وجه من الوجوه ، ونراه نكبة على البلاد والأمم التى أصيبت به ، ولكننا مع ذلك ننقل عن كتاب الغرب وعن الفرنسيين أنفسهم ما يعترضون به على هذه الإدارة

ونتساءل مع الباحثين : لماذا تطور العالم ووقفت فرنسا جامدة لا تتقدم ؟ ولماذا غمرت الدنيا موجات التحرير فى أفريقيه وآسيا وتسللت إلى الأراضى الفرنسية وفرنسا واقفة لم تتغير ولم تستفد شيئاً من دروس الماضى ؟ ثم كيف تقدم على إقرار سياسة الادماج والاتحاد فى وقت تبدو فيه عوامل التفكك والانهيار ملموسة واضحة؟ أليس فرض سياسة الاتحاد دليلا على إفلاس السياسة التى اتبعتها الحكومة الفرنسية ، والتى كانت ترمى إلى إلغاء الجنسيات والقوميات فى بعض الجهات وصهرها فى بوتقة واحدة ؟

٤ — نظريات استعمارية :

يقول الباحثون فى الاستعمار وشئونه : إنه كمشروع تجارى يجب أن ينتهى بالكسب ، على أقصر سبيل وأهون طريق ، فليس من مصلحة الدول الحاكمة أن تتحمل تكاليف إدارة المستعمرة ، وحفظ الأمن فيها ، بل هى تساعد على أن تقف المستعمرة معتمدة على مواردها الخاصة ويكره المستعمر استعمال العنف والقوة ، ويعد التلويح بهما ضعفا ، والالتجاء اليهما مخاطرة ، يتحاشى الوقوع ما أمكن فيها ، فهو كالتاجر الذى يحاسب على الدانق ويحسب للمستقبل ألف حساب ، ولذلك يعتمد فى حكم الشعوب على نفسيتها وفهمها ليستغل غرائزها لصالحه ، ولا يلجأ الى السلاح الا فى الوقت المناسب،

وبالقدر اللازم ، وهو أسرع الناس الى ازالة اثر القوة من نفوس المحكومين . هذه هى تجارب الأمم التى سارت فى هذا النشاط شوطا بعيدا فهل اتبعت فرنسا أو أخذت بهذه السياسة ؟ إن التقاليد التى وضعتها حكومات فرنسا المختلفة فى سياستها الاستعمارية كانت جامدة وصعب فى كثير من الأحيان على المسئولين تغييرها واستبدال غيرها بها نعم عملت احيانا للخروج عنها شخصيات قوية فرضت نفسها مثل الماريشال ليوتى فى مراكش، ولكن سرعان ما عاد الروتين الاستعمارى الى قواعده وفرض أرادته من جديد .

ومن عيوب الاستعمار الفرنسى أن فرنسا بدأت حملاتها بتكاليف باهظة أى أن كل قطر أو بقعة من الأرض دخلتها ، أو بسطت حمايتها عليها كلفت دافعى الضرائب الفرنسيين مبالغ لا يستهان بها . وقد جاءت تكاليف الفتح ثقيلة ، لأن الطبيعة الفرنسية تريد أولا الغلبه والنصر ، فهى قد حكمت السيف حيث يلزم السيف ووضعت السيف أيضا حيث كان يلزم غير السيف ، وفى ذلك مخالفة لقواعد الاستعمار الذى يسمن البقرة ليستدر أكبر كمية من البانها ، أما هى فحيثما حلت تحمّل الأهالى الكثير من الفقر والفاقة والعنت والتشريد

ولقد عهدنا المستعمر يتخذ له بطانة من أهل البلاد المستعبدة ، يروضهم على أغراضه ، ويوسوس لهم بما يريد ، فإذا هم طوع اشارته

يصل بواسطتهم إلى أهدافه وأغراضه ، من غير أن تظهر نياته ، أو تشعر بأنفاسه ، ومن دون ضجة ولا جلبة ، وللاستعمار الفرنسى من يخدمه باخلاص من زعماء البلاد الخاضعة له ، ولكن فرنسا اعتادت أن تضع على أكتاف رجال فرنسيين من العسكريين والمدنيين العبء الأكبر من المسئوليات، وأن تسند إليهم مباشرة سلطات التشريع والادارة والتنفيذ ، فان أساءوا التصرف تحملت هى عبء الأخطاء ، وخسرت عطف الناس بالدفاع عن رجالها ، بينما قواعد المستعمرين تحتم على الدولة الغاصبة أن ترسم الخطط الكبرى ، وأن تترك أمور التنفيذ لأهل البلاد ، يتولونها بأيديهم ، حتى إذا أخطأوا ، وغالباهم مخطئون ـ تبرأت السلطات منهم ،وألصقت الأخطاء بهم وأتت بفريق جديد يتولى تمثيل نفس الدور ، وهذا النظام الأخير جعل عيوب الادارة الاستعمارية ملصقة بأهل البلاد دائما ، بينما النظام الفرنسى يضع العيوب على رأس الدولة المستعمرة ويحملها الأخطاء والأعباء كما قلنا .

٥ — تأخر المستعمرات الفرنسية فى ميدان الحضارة وأسبابه :

وهناك ظاهرة أخرى لها أهميتها ، وتكاد تنفرد بها المستعمرات الفرنسية وما يشبهها من ممتلكات بعض الدول الأوربية ، التى احتفظت بمستعمراتها كتراث تاريخى لماض قديم ، وهذه الظاهرة

هى أن التقدم المادى الذى صحب العالم فى السنوات الماضية والذى فرض نفسه على أغلب المستعمرات فى قارات العالم لم يشمل الأمبراطورية الفرنسية ، ولذلك إذا تحدث الفرنسيون عن مجهودهم الاستعمارى وملأوا العالم بكتبهم ونشراتهم فهو مجهود عظيم من وجهة نظرهم وحدهم ، ولكنه مجهود متواضع إذا قيس بما قامت به الأمم الاستعمارية الأخرى ، فإذا نزلت بشمال أفريقيه وهى من البقاع الخصبة الغنية بمواردها وثرواتها المعدنية ، وقارنت ما عملته فرنسا هناك بالمجهود الذى بذله الاستعمار فى نواح مماثلة لوجدت أن مجهودها لم يصل إلى الدرجة التى تسمح بها حضارة القرن العشرين وبما تضعه بين أيدى الإنسان من وسائل تمكنه من السيطرة على الطبيعة ومن اخضاعها لإرادتها : والأمثلة على ذلك كثيرة إذ تجدها فى كندا واستراليا وأفريقيه الجنوبية ، وزيلندة الجديدة .

٦ — تعليل هذا الوضع :

ويعللون هذا النقص أن فرنسا بلد زراعى فى حياته الاقتصادية وهذا الوضع ينقص من طاقة فرنسا وامكانياتها كدولة عظمى ، ثم هى وطن الملكيات الصغيرة ولذلك يبرز فيها عامل اقتصادى هام هو عامل الادخار أو التوفير النقدى الشعبى الذى يعتمد فى تراكمه وازدياده عاما بعد عام على ملايين من الناس وقيل أن هذه الأمور

مجتمعة تؤثر فى سياسة الدول حينما تواجه عملها فى المستعمرات لإستغلال مواردها وذكر بعض الكتاب أن فرنسا كانت تحسن صنعاً لو أنها من البداية فتحت أبواب امبراطوريتها لنشاط الدول الصناعية الكبرى ، مثل أمريكا الشمالية ، أو بعض الدول الأوربية ولكن رجال الحكم وأساطين الاستعمار حرصوا منذ زمان طويل على وضع العراقيل الجمركية والتشريعية لمنع حدوث هذا النشاط بل أقفلوا حدود أمبراطوريتهم وجعلوا منها مناطق محرمة وممنوعة لأى تنافس يأتى إليها من الخارج .

ولا نشك فى أن فرنسا كانت بلدا صناعيا من الدرجة الأولى وكان هذا فى القرن الماضى ولكن ظهور الصناعة الضخمة وتطورها السريع فى بلدان أوربية أخرى جعل منها بلداً صناعيا فى الدرجة الثانية ولقد ذكرنا فى بحث سابق أن التركيز الإقتصادى بين الدول الصناعية والمستعمرات أو بين المستعمرات وبعضها يعتمد على التفوق الصناعى والمقدرة الرأسمالية والانتاج الواسع رهى مجتمعة تمهد للدولة صاحبة الشأن أن تسير بالمستعمرات ومناطق النفوذ نحو التكتل الذى يجعل من هذه الدولة قوة عالمية ، أما الاستعمار الفرنسى فلا يزال فى الدور البدائى الذى لم يتطور بهذه الوثبة ، ولعل شعور الفرنسيين بذلك هو الذى أملى على رجال السياسة مشروع الاتحاد الفرنسى الذى يحاولون تنفيذه .

٧ — فرنسا بلد زراعى :

وإذا نظرنا الحالة حالة فرنسا كبلد زراعى نجد أنها من أغنى البلاد الأوربية ، بل إحدى الدول القليلة التى تعد فى حالة استكفاء بالنسبة لغيرها ، ومعنى ذلك أنها لا تعانى مشاكل ومتاعب لا طعام سكانها فهى ليست بحاجة إلى مضاعفة المساحات المزروعة فى مستعمراتها ، فإذا كان هناك بعض الأثر للتطور الانتاجى الزراعى وزيادته ، ويبدو هـذا ملموسا فى بعض المناطق أو مكللا نسبيا بالنجاح فى المزارع التى يملـكها الفرنسيون بالمستعمرات فإنه محدود الغاية والوسائل .

٨ — رءوس الأموال :

أما رءوس الأموال وكونها مجمعة من التوفير الشعبى فيبدو فى اتجاه أصحابها إلى تفضيل القروض الخارجية للدول الأجنبية الصديقة لتصورهم أن فى ذلك ضمانات أكبر من المجازفة فى صرفها على مشروعات فيها روح المغامرة بأراضى المستعمرات وهى قاعـدة مستمدة من طبيعة الشعب وعقليته .

٩ — فرنسا كبلد صناعى :

ونعود إلى الناحية الصناعية إذ هى العامل الأساسى الفعـال لكل سياسة استعمارية موفقة نظرا لما تحويه أراضى القارات البعيدة

من مواد أولية ضرورية للصناعات ، ولأن عظمة الدول الصناعية بليت على ما تقدمه أراضى مستعمراتها من خامات رخيصة قد تذهب أحيانا إلى تمكين كل واحدة من احتكار بعض هذه المواد وحرمان بقية العالم منها . فاذا نظرنا إلى حالة فرنسا بعد أن انتهت الحرب العظمى الأولى نجد أنه طرأ عليها بعد سنة ١٩٢٠ تغيير بعيد المدى ، فقد بدأ يسيطر على مقدراتها طائفة من أصحاب الصناعات الكبرى يدعمهم رجال المال ، واعتمدوا على ما يبثونه فى الجماهير من آراء وأفكار ، عملوا على أن تصبح بالتكرار راسخة وأهمها فكرة أمن فرنسا وضمان حدودها أى إيهام الشعب بوجود خطر دائم يهدد كيانه ليبذل مجهودا فى ناحية معينة أو ليستعد لتلبية التضحيات التى يتطلبها العمل لدرء هذه الأخطار .

١٠ — فرنسا قبل الحرب العالمية وبعدها :

ولم تكن فرنسا قبل سنة ١٩١٤ فى حالة تمكنها من منافسة الدول الصناعية الكبرى التى نضجت أو أتمت بناء هيكلها الآلى الضخم لا فى السوق العالمية ولا فى طريقة استغلال واستثمار أملاكها وكانت تلجأ إلى وسائل شاذة لحماية تجارتها فى الأراضى المملوكة لها فما بالك وقد بدأت بعد الحرب مباشرة تحمل أعباء إنشاء صناعة على نمط الصناعة الثقيلة ـ يقصد بها صناعات الحديد والفولاذ

والصناعات الكيماوية الكبرى — ولو أن التعبئة المالية والفنية والإنشائية للوصول إلى هذه الغاية كافية لأن تستنفد مجهودات جيل بأكمله.

وقد بدأ هذا المشروع يسير سيره الطبيعى من يوم استرجاع مقاطعتى الالزاس واللورين، إذ جعل ضم هاتين المقاطعتين بين يدى رجال الصناعة بعض ما كان ينقصها من مواد الصلب والحديد، وياحبذا لو ضم إليها جزء آخر من أراضى المانيا وهو الروهر إذن لحصلت فرنسا على ما تحتاجه من الفحم الحجرى.

يلتمس الكتاب الفرنسيون بعض العذر لبلادهم فى تقصيرها الاستعمارى الذى ينسبونه إلى أن هذا المشروع الصناعى الكبير الذى جعل رءوس الأموال تتجه إلى تحقيقه، اتجاها ترك النشاط فى أراضى المستعمرات قاصرا على الضرورى اللازم، وعليه تأخر تنفيذ المشروعات الكبرى التى وضعت لاستغلال أراضى جبال اطلس بمراكش ونظر إليها وإلى غيرها نظرة ثانوية، أو تأجل تنفيذها باعتبار أنها تكميلية للبرنامج الصناعى فى أراضى فرنسا الأوربية.

وعليه فهم لا يسلمون بالنقص الذى بدأ من ناحية بلادهم، ويقولون إن الفترة بين الحربين نقلت الدول الكبرى الصناعية

مرحلة نحو التكتل والتماسك مع المستعمرات بل ذهبت إلى إدخال الصناعات فى أراضى المستعمرات نفسها كما حصل فى الهند واستراليا وافريقيه الجنوبية وبقيت فرنسا تدير مستعمراتها بأساليب قديمة إلا أنها حسنا فعلت لأنها انتظرت الوقت المناسب لكى تستفيد من تجارب غيرها ، ولكى يحين الوقت الذى تندمج فيه هذه الأقطار فى نظام اتحاد فرنسى يشبه من بعض الوجوه نظام الاتحاد السوفييتى ، وحينئذ تظهر للعالم فرنسا الاستعمارية القوية ، التى لم تضع منها سنوات الانتقال ، بل كانت تحضر برنامجا صناعيا للمستعمرات سوف تدهش العالم المتمدين به .

وسنرى هل وقفت لشىء من ذلك بعد الحرب العالمية الثانية أم لاتزال كما كانت فى الماضى تدير امبراطورية ضخمة تقصر عنها جهودها ؟

ان سنوات الحرب الاخيرة قد اظهرت العيوب والمتناقضات واهم من كل هذة أظهرت القصور عن ملاحقة الغير .

وطبيعى ان هذا البرنامج الذى يشيرون اليه لن يتحقق بغير مساعدة الولايات المتحدة أذا طبق فى يوم من الايام .

القسم الثانى

صداقة وعداء وسط النكبات والهزائم

---

١ ـ فرنسا والحرب العالمية الثانية بين الديمقراطية والفاشية :

قامت الحرب العالمية الثانية وكانت فرنسا منقسمة فى الداخل : فالروح الرجعية التى تفشت فى عـــدة بلاد بأوروبا وأفريقيه ، وآسيا أخذت فى فرنسا مظهر العنف فى مظاهرات الكونكورد سنة ١٩٣٣ وهذه الروح لم تكن قد ماتت فى سنة ١٩٣٩ بل كانت تمثل مصالح وأغراض تلك الفئة التى أشرنا إليها من أساطين الصناعة الذين أخذوا على عاتقهم تنفيذ هذه البرامج ، وكانت هذه الفئة تؤمن بضرورة مسالمة برلين وروما ، لا حباً فيهما ، أو رضوخاً لإرادتهما بل لأن الوطنية تملى بأنه يجب تحمل كل شى فى سبيل السلم ، حتى تستكمل فرنسا بناءها الصناعى ولو كان فى ذلك الخروج من ميثاق عصبة الأمم ، أو إهمال المحالفات والضمانات القائمة .

٢ ـ صداقة بريطانيا :

يقابل هذه الروح تيار الديمقراطية ممثلا فى روح الجماعات

والأحزاب السياسية والبرلمان ، وكانت جميعا لاترغب فى الاندفاع طريق إلى غير مأمون العاقبة ، يفقد فرنسا مركزها الأدبى كدولة عظمى ، إذا حنثت بالمواثيق والضمانات المأخوذة ، أو ضربت بالمحالفات والمعاهدات عرض الحائط ، ويفقدها صداقة حليفتها بريطانيا ، تلك الصداقة التى بنيت عليها سياسة فرنسا منذ الاتفاق الودى عام ١٩٠٤ ، وأكسبتها المواقف الاستعمارية فى مؤتمر الجزيرة ١٩٠٧ وأيام حادث أغادير فى مراكش سنة ١٩١١ وكانت العامل الأساسى لكسب حرب ١٩١٤ / ١٩١٨

٣ — أثر بريطانيا فى سياسة فرنسا :

وكانت هناك دواع تملى باستبقاء تلك الصداقة من الجانب البريطانى نفسه . فقد ظهر جلياً بعد تقدم الطيران ، وموقف إيطاليا المعادى أن أراضى الامبراطورية الفرنسية ستكون فى السلم والحرب الممر الطبيعى للطائرات البريطانية ، إذا تحاشت البحر الأبيض المتوسط . لم يكن من السهل إهمال علاقات هذا الجوار ، وما تمليه المصالح المشتركة للبلدين ، وما يفرضه تعاشق حقوق الارتفاق بين الامبراطوريتين ، ولهذا لم تترك السياسة البريطانية هذه الناحية تسير طبقاً للأقدار بل مالت بقواتها وعبأت أساليبها المختلفة وعضدت الاتجاه المضاد للحركة الأولى ، وكان إن حكمت فرنسا حكومات

بقيت حريصة على محالفة بريطانيا ، وترتب على هذا أن دخلت فرنسا الحرب العالمية الثانية بجانب الامبراطورية البريطانية .

ومن هنا نفهم حقيقة العرض الذى تقدم به تشرشل قبل تسليم يونيه ١٩٤٠ واقترح فيه إدماج الأمبراطوريتين فى اتحاد واحد وهو العرض الذى توهم فيه الكثيرون بأنه كان عرضاً خيالياً لا يستند إلى أساس .

٤ — الحرب العالمية الثانية ٣٩ — ١٩٤٥ والمستعمرات الفرنسية .

جاءت الحرب وتتابعت شهورها الأولى . وتحملها الناس وطأتها على فرنسا ، وظهرت عيوب الأنظمة الفرنسية ، وتفكك الأحزاب الحاكمة ، وخيانة رجال الصناعة ، وقواد الجيش ، وتوالت الهزائم واضطرت فرنسا للتسليم عقب قتال لم يدم طويلا . وكان أن طرأ حادث غريب فى تاريخ العالم جاء نتيجة لإبرام عقد الهدنة بين فرنسا وألمانيا سنة ١٩٤٠ وهو أن يحتل العدو بلداً أوربيا أوجزءاً منه بجيوشه وتبقى أراضى المستعمرات من غير احتلال وليس فى ذلك من عجب إذا كانت الهدنة لوقف القتال ثم تعقبها مفاوضات الصلح وينتهى الأمر بإبرامه عقب فترة قصيرة من الزمن كما حدث سنة ١٨٧٠ ، أما أن تعقد الهدنة ويتضح من شروطها استثناء الأمبراطورية الفرنسية وبقاء جيوش الجمهورية للدفاع عنها ويستمر ذلك شهورا

ثم سنوات مادامت الحرب قائمة فأمر جديد أثار الكثير من المشاكل كلما بعدت نهاية الحرب .

فهناك فريقان يتحاربان حربا مميتة . وهناك أمبراطورية لدولة قبلت التسليم فما هو حكم الأراضى التى سلمت . أهى دار حرب وقتال ، أم هى على الحياد ؟ لاشك فى أن القسم الفرنسى الذى يشغله العدو بجيوشه هو دار حرب .

فما هو موقف القسم غير المحتل وأهم جزء فيه تلك الأمبراطورية بأقاليمها المتسعة .

٥ — هدنة سنة ١٩٤٠ ومستعمرات فرنسا :

كنت فى بيروت عند بداية الحرب وبعد عقد الهدنة ، ولقد شعرنا وشعر الناس جميعاً أن الحياد الذى أرادت فرنسا أن نظهر به غير موجود ، ولا يمكن التمسك به نظرياً أو عملياً فقد كانت الطائرات الإيطالية والألمانية تضرب فلسطين وكان بعضها يصاب بنيران المدفعية ، فيضطر للهبوط فى أراضى سوريا ولبنان ، فاتخذت السلطات الفرنسية معها فى الحوادث الأولى الإجراءات التى ينص عليها باب الحياد فى القانون الدولى ، وكان للألمان لجنة عليا فى فيسبادن ، تشرف على أمور الهدنة وتفسير شروطها . أبلغت هذه اللجنة الحكومة

الفرنسية رسمياً أن شروط الهدنة مع المانيا لا تجعل من فرنسا ومستعمراتها بلدا محايدا ، وما يسرى على المستعمرات يسرى على الأراضى المشمولة بالانتداب[1] ، وبناء على ذلك أفرجت السلطات السلطات العسكرية الفرنسية عن الطائرات والطيارين ، وسمحت بالمرور والنزول فى المطارات ، فكان من بريطانيا أن قذفتها بالقنابل ووجهت حملتها لاحتلال أراضى سوريا ولبنان .

٦ — حالة شاذة :

هذه الحالة الشاذة لأوضاع الأمبراطورية الفرنسية طول مدة الحرب أوجدت فى أراضيها نوعا من الحكم استفاد منه الفرنسيون للوقوف بين الفريقين المتحاربين ، ولو أنه أدى فى النهاية إلى خسارة أسطولهم ، واحتلال الألمان والطليان تونس ، إلا أن هذه الحالة لفتت أنظار الفرنسيين جميعاً للأمبراطورية وأثرها وأهميتها ، وما ينتظر منها ، وإنها قوة المستقبل ، ودرع الشعب الفرنسى ، وغير ذلك ، مما كانت تردده الصحف وتذيعه الأنباء المختلفة من محطات اللاسلكى .

انقسمت فرنسا إلى قسمين : حكومة فيشى وحركة الجنرال ديجول . واتفق كلاهما على أمر واحد وهو الاحتفاظ بوحدة الأمبراطورية ، وعدم التفريط فى أى جزء منها ، وترجع الأخطاء

(١) أى اراضى سوريا ولبنان

وأعمال العنف التى ارتكبها ممثلو فرنسا فى القطرين الشقيقين سوريا ولبنان إلى تمكن هذه الفكرة منهم ، تمكنا أعماهم عن تلمس الحقائق ومواجهة تطور العالم الجديد .

وأغرب من ذلك أن الحلفاء حينما وجهوا حملتهم إلى شمال أفريقية قام الكتاب الفرنسيون بحملة قلمية فى أنحاء العالم ، تقول : إن الامبراطورية وشعوبها قد قامت تشد أزر الجنرال ديجول ، وأنها سارت تحت لوائه لإنقاذ أراضى الوطن المحتلة ، واتخذوا هذه هذه الدعاية دليلا على نفوذ فرنسا وقدرتها الاستعمارية . بل من هنا أخذوا ينادون بما صمموا عليه من إدخال سياسة الاتحاد الفرنسى وفرضها بقولهم : إن المستعمرات قد حلت عبء القتال عن الوطن الأوربى المحتل ، فهى إذن ساهمت فى تحريره ومن حقها أن تندمج فيه وتكون وحدة معه وتنقل هنا ما كتبه بول أميل قيار « لأول مرة سلم الوطن الأم وبقيت فرنسا تحارب فى مستعمراتها . » .

٧ـ لماذا لم تحتل المانيا الأمبراطورية الفرنسية :

- إن السياسة التى أملت على المانيا ترك الأمبراطورية الفرنسية تحت أشراف فرنسا بعد تسليمها لا تزال غامضة ، بل هى إحدى المعميات التى سيتسائل عنها مؤرخو الحرب طويلا ، فقد تكون

Pour la première fois la Mère patrie a capitulé , mais la France a continué a combattre dans ses colonies „

هناك عوامل عسكرية أو سياسية فرضت هذه السياسة ، ومن المحقق أن هناك مفاوضات وأشياء لايزال العالم يجهلها تماما .

فمن قائل أن التسليم قد تم على يد رجال يؤمنون بعظمة فرنسا إذا تخلصت من انظمتها الدستورية ، واتجهت اتجاها فاشيا ، فمن الطبيعي تشجيع هذه الحركة وإعطاء هؤلاء الناس بعض التساهل ، بترك المستعمرات لهم ، ومن قائل أن الغرض الأساسي الذي رمى إليه هتلر هو أن يجعل الامبراطورية الفرنسية يوما ما في صفه أمام الامبراطورية البريطانية في إفريقية وذلك لأن :

٨ — لفرنسا سياسة أوربية وللمستعمرات سياسة امبراطورية :

يقول أصحاب هذا الرأي أنه إذا كان لفرنسا سياسة في القارة الأوروبية تعتمد على الأمن والضمان ، وهي تحتم التحالف مع بريطانيا وغيرها فإن للإمبراطورية بحكم موقعها الجغرافي ونفوذها وحاجاتها الاقتصادية سياستها الخاصة بها .

ويظهر ذلك جليا في أن الفرنسي في القارة الأوربية يعالج المشاكل بروح تختلف عن روح الفرنسي بالمستعمرات الذي يفكر بالاسلوب الأفريقي الاستعماري وينظر إلى عظمة فرنسا في امبراطوريتها ، نظرة بعيدة عن تطور السياسة الأوربية وماتفرضه من محالفات وصداقات .

فاذا تركنا جانبا المستعمرات البعيدة مثل مدغشقر والهند الصينية تبدو الامبراطورية الفرنسية لعقول هؤلاء كوحدة جغرافية لها أهمية كبرى ،وهى فى نظرهم كائن حى، له ما لفرنسا من مشاكل متعلقة بالأمن والحماية والجيش والبحرية .

وقد تتفق السياستان وقد تختلفان فى الشئون الخارجية . أما فى الشئون الداخلية فقد ظهر أثر الرجال الفرنسيين المقيمين بالمستعمرات فى محاربة كل إصلاح يرمى إلى إشراك الوطنيين فى الحكم[1] بل فرضوا إرادتهم واجبروا الحكومة المركزية على تغيير سياستها مرارا ، ولذلك توهم المختصون بشئون الاستعمار أن لا مخرج لهم من هذا التعارض سوى سياسة الاتحاد ، التى تجعل من فرنسا والأمبراطورية كتلة واحدة فى الخارج والداخل لها سياسة واحدة .

وكان من رأى الذين لمسوا هذا النزاع القائم أن المشاكل الأقليمية والحربية فى سيرها وتطورها تواجه فى النهاية مصالح الأمبراطورية البريطانية فى إفريقية وأكبر ضربة لهدم التحالف الفرنسى البريطانى تأتى من تشجيع فرنسا للأخذ بسياسة امبراطوريتها ، فى الأمور الخارجية وبنوا نظريتهم على ما يأتى :

(١) لا يزال هذا النفوذ قائما وهو يعطل ويقضى على كل سياسة تقارب نحو ابناء المغرب.

٩ — المتناقضات القائمة بين امبراطوريتين عالميتين

فقالوا ان سياسة الوفاق والصداقة سهلة وتبدو ضرورية فى أوربا، ولكنها صعبة وغير محتمله فى افريقية، أو إذا سار التحالف بانسجام هنا فإنه لايسير أشواطا بعيدة فى إفريقية، من غير أن تبرز المتناقضات وهى الأمور التى تطور الى مشاكل أو ازمات، فيستعصى حلها، لأن مردها إما إلى السياسات العليا او إلى القواعد الثابتة لطبائع الأشياء، وعلى هذا الضوء تبدو حوادث سوريا ولبنان سنة ١٩٤٣ ومشاكل بريطانيا فى طرابلس الغرب، وبرقة فى الوقت الحاضر، وتعذر ايجاد حل لها.

١٠ — أمل المانيا فى استغلال التنافس بين الدولتين

كان الألمان على إلمام تام بالحالة النفسية والعسكرية فى الجيش الفرنسى، وبما يمكن أن تؤديه الفرق المكونة من الجنود الافريقية وعلى يقين من طاقة هذه الشعوب المستعبدة ومقدار صلاحيتها للحروب الحديثة ولذلك أبقوا على وحدة الامبراطورية الفرنسية وتركوها بيد الفرنسيين احتملوا ابقاءها لأنهم توهموا ان التنافس بين البريطانيين والفرنسيين قد ينقلب إلى عداء وقد مرت حوادث كانت نتيجتها التصادم والقتال ولكن الامبراطورية الفرنسية لم تتحرك، بل إن القتال الذى نشب فى سوريا ولبنان انحصر هناك

---

(١) حررت بريطانيا اراضى سوريا ولبنان وهى تحاول إيجاد حكومة فى برقة وطرابلس فتقاومها فرنسا. هذه المتناقضات مما يتعذر الاتفاق عليها

أما من الناحية الفرنسية فقد تمكن الأمل من القواد والساسة لدرجة أنهم توهموا أن لديهم القوة الكافية للدفاع عن الامبراطورية اذا هوجمت وحشدوا وحداتهم البحرية فى شمال افريقيه أملا فى الخروج إلى السلم بالسيادة على البحر وحدود المستعمرات كما كانت قبل الحرب بل كانوا يتبجحون بأنه إذا لزم الأمر أن يقبلوا التضحية عند إقرار السلم مع المانيا فلتكن التضحية من الأراضى الأوروبية إذا ضمنوا المحافظة على وحدة أملاكهم الافريقية التى هى المدى الحيوى التاريخى للشعب الفرنسى وهو الزم لهم من مقاطعات الشمال.

ومن الغريب أن هذا الأمل الألمانى وهذا المنطق الفرنسى ترك شمال افريقية فى حالة سهلت للحلفاء احتلالها واتخاذها بمرافئها لجمع قواتهم التى زحفت الى قلب اوربا فكان أن ساهمت الامبراطورية الفرنسيه فى تحرير اوربا بل فى تحرير العالم ولكن كبقعة متسعة من الأرض استعملت كمسرح للحوادث والمعارك كأى بقعة من بقاع الشرق الادنى.

١١ — الحلفاء يسيطرون على أملاك فرنسا ثم يعيدونها إليها

تمزق السور الفولاذى لأول مرة عند دخول الحلفاء وقواتهم أراضى شمال افريقية فرأى اهل مراكش وتونس والجزائر جنودا من عناصر اخرى غير فرنسية ولابد انهم لمسوا وعاينوا اشياء جديدة ولكن البلاد التى خضعت لسنوات عديدة لاعمال العنف

والتشريد كانت تتمخض بانبعاث جديد ووثبة شاملة ولم تكن حملة الحلفاء لتخلق هذا الوعى القائم لولا أن لهذه الشعوب من الشخصية والتاريخ مايجعلها تحس وتشعر بالرسالة التى تحملها للعالم وجاءت حملة الحلفاء لهذه الأرض باساطين العالم وكانت مقر مؤتمرات وعرف الناس جميعاأن اراضى تونس والجزائر ومراكش اصبحت وديعةفى يد الحلفاء وقد اعيدت لفرنسا بعدأن تعهد رجالها لروزفلت أن تسير هذه البقاع فى ركب الحضارة نحو الحرية وتقرير الصبر كغيرها من بقاع الدنيا التى يسكنها الانسان لا الحيوان

(اعود الى الوراء ام عصر جديد) هذه كلمة الاستاذ اسماعيل مظهر حينما عرض الى مشروع الاتحاد الفرنسى ونحن نتفق معه فى صيحته ونقول

ان الخطر الذى يبدو لنا هو ان توفق فرنسا فى اقناع العالم ان الاتحاد الفرنسى هو مشروع انسانى يدعو الى رفع مستوى شعوب الامبراطورية ويعد تنفيذه تحقيقا لما وعدوا به روزفلت فى اجتماع الدار البيضاء اوانه مرحلة فى طريق الرقى الاجتماعى كما تعهدوا.(١) ولكن فكرة الاتحاد قديمة وسنعرض لها فى الجزء الاخير من هذا البحث ونبرهن انها اخطر بكثير مما تتصور وانها ضربة موجهة لاستقلال الشعوب وحريتها ومستقبلها وانها اخطر طعنة يوجهها الاستعمار الأوربى فى افريقيا موطن الشعوب المظلومة .

(١) تبدلت الأوضاع فى السنوات الاخيره وحدث ماكنا نخشاه .

القسم الثالث

في طريق الاتحاد الجبرى

١ — إن العالم الإسلامى فى يقظته وفى كفاحه ضد الاستعمار الانجلو-سكسونى والأوروبى والصهيونى يواجه ثلاث هيئات اتحادية: الاتحاد السوفييتى فى الشمال، والاتحاد الفرنسى فى المغرب، والاتحاد الهندوكى فى الهند. وكل اتحاد منها يعطى لنفسه مظهر حركة تقدمية (١) يصبغها بصبغة التحرر (٢) ويريد كل منها أن يقنع العالم أن هذا الاتحاد جاء وليد إرادة شعبية، وأنه فى مصلحة هذه الأمم وفى الهند يأخذ الاتحاد شكل حركة قومية كبرى، ولو كان الأمر قاصرا على المناطق التى يسود فيها الروس والفرنسيون والهندوس لما أثار ذلك اعتراض أحد من الناس.

٢ — ولكن الباحث المدقق لا تغريه الألفاظ والمظاهر إذ يتبين له أن كلا منها ينتزع أقطارا شاسعة، ويحاول أن يضم أمما إسلامية.

(I) Prorgessiste

(2) D' Emancipation

لا تمت بصلة إلى الاتحاد الذى يفرض نفسه فرضا عليها ، ولذلك لا تلبث أن تنكشف حقيقة هذه الأنظمة الاتحادية ، حينما يتعلق الأمر بمستقبل الشعوب الإسلامية وحريتها ، إذ تبدو لنا هـذه الأنظمة فى ثوب قوات رجعية (١) تعسفية (٢) لا تمنح للمسلمين حريتهم وحقهم فى تقرير مصيرهم ، بل تجعل للتحكم والسيطرة والاستغلال الاقتصادى شكلا جديدا براقا لا يغتر به إلا الواهمون. فالاتحاد الفرنسى يحاول بقوة التشريع ضم أراضى شمال أفريقية وسكانها ، وهم أكثر من عشرين مليونا ، لهم تاريخهم وثقافتهم وشخصيتهم ، دون أن يسمح لهم بأبداء رأى فى هـذا الاتحاد . والاتحاد السوفييتى يضم أكثر من أربعين مليونا من المسلمين الأسيويين لا يسمع لهم صوت ، ولا يسمح لهم بالاتصال بالعالم الخارجى . والاتحاد الهندى يحارب كيان دولة الباكستان الإسلامية ويحاول القضاء عليها وابادة الاقليات الإسلامية او أضعافها .

٣ـ ولا يمكن للعرب فى إفريقية والمسلمين فى آسيا قبول وضع من الأوضاع يجعل منهم أقلية فى بقعة من بقاع الأرض ، لأن تجارب الماضى كانت شديدة الوقع عليهم ولذلك فهم لا يسلمون للأقدار أن تتحكم فيهم مرة أخرى ثم هم أصحـــاب مجد وتاريخ وصولة على

(1) Rétrograde
(2) Arbitraire

هذا الكوكب الأرضى ، وهو تاريخ حافل بأيام العراك والكفاح والنصر والهزيمة، وهو فى قوته وبروزه وأثره لا يمكن أن يقارن به تاريخ أى أمة من أمم الأرض مهما علا كعبها فى الحضارة . وقد ألقى علينا هذا الماضى درسا قاسيا لا يمكن أن ننساه ، فنحن قد فقدنا ملايين من العرب فى أسبانيا ، وجزائر صقلية ، وسردينيا ، وكريت ، ومالطه كانوا عربا دخلوا هذا البلاد واستوطنوها ؛ ثم زالت أيامهم ، فأدمجوا بالسيف فى جنسيات وأديان أخرى ، ولاتزال دماء العروبة فى عروقهم إلى اليوم وهناك ملايين من المسلمين كانوا سادة فى القرم ، ورومانيا ، والبلقان ، فأين هم اليوم؟ إنهم يوم أن أصبحوا أقلية أفناهم الظلم والاستبداد .(١)

٤ ـــ ولهذا فكل اتحاد يفرض بالقوة على أقطار المغرب وشعوبه العربية ويحول بينهم وبين جامعتهم هو حركة استعمارية رجعية تعسفية تستهدف إفناء العروبة والإسلام ، والوقوف أمام نهضة الشعوب العربية فى مراكش وتونس والجزائر وأضعافها كقوة فعالة فى تاريخ العالم ، ولذا وجب على كل فرد منا أن يفهمها على حقيقتها ، وأن يشعر بالأخطار التى تهددنا من هذه الناحية ، وأن نحشد كل مالدينا من القوى الروحية والعقلية للوقوف أمامها حتى يشعر العالم أجمع أنه ليس فى عزمنا نحن معاشر الأمم الإسلامية والعربية أن نفنى

(١) كتب هذا قبل نكبة فلسطين التى لا تعادلها غير نكبة الأندلس

بهذه السهولة من الأرض فتذهب ريحنا لدى الصـــدمة الأولى .

٥ — وقد عرضنا فى القسمين المتقدمين لمصاعب الاستعمار الفرنسى ، ولمسنا تأخره عن ملاحقة العالم ، وكشفنا عن إفـــلاس فرنسا كدولة حاكمة وقلنا : إن هـذه الأمور جهر بها كتاب الغرب ، وسلم بها الفرنسيون أنفسهم ، أو فريق منهم ، وكنا نقدم للقارىء ما يجول بنفسية الفرنسيين من آمال وسط هزائمهم ، وبعد أن ظهر للعيان تقصيرهم وكنا نرمى بهذا أن نضع الحقائق مجردة أمام القارىء ، حتى يكون على علم بأقوال الخصم ، وما يدخلها من غرور ووعيد ، وغايتنا من ذلك أن يفهم العالم العربى أن محاربة الاستعمار تستلزم الوقوف على أساليبه والألمام بطرقه ، وأن الدول الغاصبة مهما كانت سياستها غاشمة ومع مابين أيديها من وسائل القمع تحاول أن تفرغ هذه السياسة فى قالب يقبله العقل ويسلم به ، فعلى الذين نصبوا أنفسهم للجهاد أن تتسع صدورهم لأقوال الخصم ، وأن يروضوا أنفسهم على الحقائق ، وإن كانت مرة ليتسنى لهم تحقيق مارسموه لأنفسهم ومبادئهم من أهداف .

٦ — والدول الاستعمارية لا تفهم ما نقرره لأنفسنا ، بل لا تسلم به وإنما لديها المنظمات التى توافيها بكل صغيرة وكبيرة عنا ، وهى لا تنوى أن تتنازل عن أملاكها ومستعمراتها أو تفرط فى حق من حقوقها

إلا بالقدر الذى تنتزعه الشعوب منها . وهذه الشعوب فى تقدمها نحو الوعى القومى واليقظة تؤمل فى أن تتشبع بالحقائق حتى لاتذهب جهودها وضحاياها هباء[١] ، ثم هى تروم أن تحقق لها مجداً وأن تسير فى طريق التحرر والخلاص ، وأن تعالج مشاكلها على ضوء العلم ووضع الأمور فى نصابها ، فعلى المتصدرين للحركات العامة أن يهيئوا أنفسهم للقيادة ، و لا يكون ذلك بغير العلم والبحث والدرس ، وتتبع الدول الاستعمارية والكشف عن أغراضها ومراميها ، والوقوف موقف الحريص على حقوق هذه الشعوب بل موقف المتيقظ للدفاع عنها أمام الضمير العالمى .

٧ — وقف فى القرن الماضى بعض الكتاب الأنجليز ، يتحدثون عن أعباء الرجل الأبيض ومسئولياته إزاء الشعوب المحكومة ، فقالوا إنه يحمل عبئاً ثقيلا هو قيادة هذه الشعوب نحو الحضارة والتقدم ، وفى نفس الوقت أطلق كتاب اوربا على دولة آل عثمان اسم رجل اوربا المريض ، فمن كان ينتظر بعد مضى سنوات ان تتبدل احوال الكون ، وان تصبح الأوضاع مقلوبة ، فاذا الامبراطورية الفرنسية هى الرجل المريض الذى تخشى الدول الغربية وفاته ، وإذا من أعباء الرجل الأبيض مثلا فى الحكومات الانجلوسكسونية بريطانيا وأمريكا حماية امبراطورية مريضة فى

(١) كما حدث لاهل فلسطين

حالة النزع والمحافظة على وحدتها ، وأحيانا مجاملتها على حساب حرية الأمم المغلوبة على أمرها ؟

٨ — إن الاسلحة والمعدات الحربية التى تسلمتها من هذه الدول لم تستعملها فى قتال الألمان ، وتحرير البلاد منهم ، وانما وجهت الى صدور الشعوب المظلومة فى مدغشقر والهند الصينية ، وهذا العتاد سيستعمل يوما ضد أمم العروبة فى المغرب فما الثمن الذى قبضه الرجل الأبيض ؟ أهو تحطيم السور الفولاذى حول المستعمرات امام نشاطه وفتح حدودها واعتبارها اسواقا تجـــارية له ؟ وما الذى كسبت فرنسا الأم الحنون أكسبت المجد الدائم للسيطرة وأن تمر العمليات والصفقات بطريق باريس ، بدلا من أن تتجه رأسا الى أراضى المستعمرات وهل فى سبيل ذلك يسلم الرجل الابيض ببقاء فرنسا مدة أخرى فى شمال إفريقيه محتفظا لنفسه بحق الرجوع مرة ثانية اليها إما لتحريرها أو للمساعدة فى تهدئتها .

هذا ماسنكشفه لنا الايام فى المستقبل القريب .

٩ — فى الوقت الذى كان رجال فيشى يفضلون فيه التضحية بأراض من فرنسا ، محافظة على وحدة املاكهم الافريقية كان الفرنسيون الأحرار يفكرون تفكيرا استعماريا من نوع آخر . فقد عقدوا قبل نهاية الحرب مؤتمرا لهم فى مدينة برازافيل بافريقيه ، جمع عددا

من حكام المستعمرات تبادلوا الرأى فيما بينهم ، واتخذوا قرارات بشأن سياسة المستقبل ، بعد أن استعرضوا مسائل هامة :

منها العمل على رفاهية السكان الوطنيين ، ورفع مستواهم المادى مع تحسين حالتهم الفكرية والإجتماعية ، وعرضوا لمسائل التعليم وأثر الدين ، وتوزيع العدالة ، ثم بحثوا مسائل الحكم الذاتى ، والإدارة المباشرة ، وغير المباشرة . واتخذت قرارات سرية نحو وحدة الأمبراطورية ، والسير بها فى طريق الإتحاد الفرنسى .

١٠ — وهذه القرارات هى التى نقلوها معهم إلى الجزائر ، وأدمجوها فى مشروع الدستور الجديد . فعلى الذين يدرسون هذا الاتحاد أن يرجعوا إلى بحث قرارات هذا المؤتمر الاستعمارى وابحاثه واهدافه ومراميه .

ان فرنسا تعرف جيدا ان مستقبل الاستعمار والقارة الافريقية مما يشغل بال منظمة هيئة الأمم المتحدة الامم وتؤمن أن الاستعمارية لا تكافح عن املاكها بالكتائب والمال والسلاح فقط بل بالعقل والمنطق والعلم .

اننا يجب ان ننظر الى مؤتمر برازافيل على انه محاولة فرنسية لابقاء سيطرة فرنسا على مستعمراتها كاملة غير منتقصة .

القسم الرابع :

فكرة الاتحاد تواجه المصاعب

١ — فكرة الاتحاد الفرنسى قديمة ، عبر عنها جبريل هانوتو بقوله : وحدة الامبراطورية . وحدة الأدارة والتشريع والعمل . وحدة الشعور والارادة الحرة . ليست بالعنف والقوة والفتح ولكن باللين والترغيب تتم الوحدة الفرنسية . وتتميز آراؤه بخطورتها على الأمم المغلوبة ، وأثرها فى نفوس الفرنسيين وسرعة تغلغلها فى أوساطهم

٭ ٭ ٭

٢ — جبريل هانوتو من كبار رجال فرنسا ، ظهرت مزاياه وشخصيته فى أعماله وكتابته وأقواله . فإذا هو يؤثر فى جيل بأكمله من الناس كتب كثيراً عن تاريخ فرنسا وأمجادها ، وعرف الناس مالم يعرفوا عنها ، وكتب عن تاريخ الأمة المصرية ، وأشرف على إخراج كتاب على الأسلوب الذى يروقه والمستشرقين . وهو رجل دائم الانتاج لم يترك عملا من أعمال الخلق إلا كتب فيه ، ولا نشاطا إلا جال

هيوصال . كان من أولئك الذين يعملون بالمثل اللاتيني القائل[١]:

Homo sum Humani Nihil a me alienum puto

(إني بشر ويخيل إلى أن لاشيء فيما يتعلق بالإنسان غريب عني.)

فكان من الطبيعي والضروري أن يلفت الاستعمار الفرنسي أنظار الشيخ ولذلك كتب فيه وأطال وهو القائل في كتاب له عنوانه (من أجل الامبراطورية الفرنسية)

هل ترغب فرنسا أن تحيا حياة الأمم الفتية الناهضة ، أم ستلحق بغيرها من الأمم الفانية التي ذهبت ريحها ؟

هل ستفنى كما فنيت بيزنطه ؟ وهل تتبع قرطاجنة وتلقى مصيرها؟ إذا عاشت فرنسا بعظمتها وقوتها وأمجادها وهذا مالا شك فيه (هذا قوله هو) فلتكن متجهة بنشاطها وفكرها وعبقريتها إلى مستعمراتها .

هناك تبرز شخصيتها الخالقة المبدعة وتنمو علائقها مع تلك العائلة التي جمعتها حولها . عائلة المستعمرات الفرنسية .

---

(١) من أظرف ماترك مفكرو العرب في هذا المعنى قول الجنيد بن محمد الجنيد الزاهد المعروف ما اخرج الله الى الناس علماً وجعل لهم اليه سبيلا الاوجعل لى فيه حظاً ونصيباً

كانت صيحة وبرنامجا قذف بهما هذا الشيخ الفانى فتلقفهما رجال الاستعمار قال هذه الكلمة بعد أن أمضى السنين يدرس ويبحث ويقيد ويسجل .

وخطر هانوتو أنه رجل من رجال الفكر والدهاء ، يجمع بين البحث والعلم والفلسفة ينظر للاستعمار نظرة المحلل الطاغية الذى لا تتطرق الرحمة إلى قلبه .

كان هانوتو داهية من دهاة الفرنسيين تلمس روحه وأنفاسه فى كل جهة ، دون أن تظهر شخصيته ، فهو من أولئك الذين يضعون الخطط لبلادهم بمدى سنوات بعيدة ، ويرسمون لحكوماتهم برامج السير مع الأمم التى نكبت بالاستعمار ، وهو مثل من كثير غيره ، ولكن لكثرة ماقرأت عنه أرانى فى حل إذا وضعته فى صف دوفرين السفير البريطانى فى اسطانبول وملنر صاحب المشروع المشهور وكلاهما من دهاة الاستعمار البريطانى الذين وضعوا الخطط الطويلة المدى لبلادهم . ولا نزال نحن بمصر نجاهد للخروج من نطاق تقرير دوفرين من الشئون الدستورية ونكافح للخروج من دائرة ملنر فى الناحية السياسية .

ولا تعجب من تقرير ذلك . فإن الاستعمار الأوربى فى نكباته ومصائبه لا يعد شيئا بجانب مقدرته على التطور ، والظهور بألوان

(١) وضع هذا التقرير قواعد الاصلاح والتوجيهات للسياسة البريطانية .

مختلفة ، وهو أكبر نشاط إنسانى قام به البشر منذ الخليقة إلى اليوم بل هو دعامة المدنية الحالية ومظهر قدرتها وتفوقها . بل لا نبالغ إذا قلنا إن مظاهر الترف ومستوى الحياة الراقى لدى جماعات من الأوربيين سوف تنهار أو تهبط بتفكك الروابط بين بلادهم والمستعمرات ، ولذلك نجد الدول الأوربية اليوم أشد تمسكا بهذه الروابط من أى عهد مضى . ونرى أنها تجتهد أن تسالم الحركات القائمة وتسايرها وتخضع لبعض مطالبها ، حتى تحتفظ بما لها من سيطرة على هذه الشعوب .

وهذا الاتجاه هو أخطر ما يواجه الأمم الإسلامية الناشئة لأننا لن نتغلب على الاستعمار إلا إذا فهمنا هذا النوع من العمل الإنسانى[1] ، ولن نصل إلى الخروج عن نطاقه إلا إذا بعث الله لنا من أنفسنا رجالا أقوياء أشداء ، يدفعون عنا ويلاته بعزيمتهم وقوتهم ولهم من الفكر والمضاء فى الحق ما يمكنهم من نقلنا من حالتنا التى نحن فيها ، إلى حالة تقرب من المنطق والمعقول ، أو تكون أقرب إليهما من الحالة التى نعيش فيها اليوم .

وأعود إلى هانوتو فأقول : إنه قد لا يكون أول من نادى بفكرة الاتحاد الفرنسى ، فقد يكون هناك غيره ممن تقدمه وسبقه ولكنى أعجب به من ناحية أنه من فلاسفة ومفكرى الاستعمار ، الذى لمسوا تقدم الدنيا ، وتنبهوا لما قد تأتى به الأيام ، فتقدموا بآراء ومشاريع وأفكار لم تكن بعيدة عن الحقيقة .

---

(١) نسبة الى الانسان لا الى الانسانية .

ثم هو مع دهائه وفكره وبصيرته لم تشغله مظاهر الدنيا والثراء وحب النفوذ كما شغله حب بلاده، ورغبته فى بقائها تتحكم على ربوع المستعمرات وفى رقاب أهلها، وهو حينما يكتب وينشر آراءه وسمومه لا يهمه شخصه، وإنما يؤمن بشىء واحد هو بقاء سيطرة فرنسا على مستعمراتها.

فهو يسلم بأن بناء الجماعات متوقف على الأنظمة (١) التى تربطها وهذه يجب أن توضع على أسس صالحة قوية، بل إن الأنظمة هى روح الجماعات بقدر صلاحها تصلح الجماعة، وإذا فسدت أنهار كيان الجماعة.

ولهذا فالامبراطورية فى نظر هؤلاء كائن حى، يجب أن يعيش وينمو، وإن قوته مستمدة من الأنظمة التى تربط المستعمرات بالوطن الأم، وان أنظمة الحكم يجب أن تتطور مع الزمن حتى لا يعتورها ويصيبها الجمود وهو علة المجتمعات والداء العضال الذى يصيب الأمبراطوريات ويقضى عليها، كما قضى على ملك روما وبيزنطة وغيرهما.

فهذه الفلسفة الاستعمارية لم تقف عند حد النظريات، بل أخذت تحلق فى العلاقات بين الدولة الحاكمة والأمم المغلوبة وتتخذ طريق التجربة والاستقراء فى مختلف النواحى.

Institutions (1)

وحقيقة للعالم هى أن السيطرة الأوربية سواء أكانت فرنسية أو غيرها سادت العالم وشعوبه ، واحتلت المكان الأول وفرضت إرادتها أينما حلت إلا فى الجهات التى ساد فيها الإسلام ، فهناك واجهت المصاعب واضطرت أن تسير على حذر وعلى قدر ، ولذلك تلقى الإسلام والعرب أكبر الطعنات فى التاريخ ، وفى سبيل هدمه أعطى ذلك اللون البراق للمدنيات القديمة ، التى انقرضت فى مصر وبابل واشور وفارس ؛ وهذا يفسر لنا تهجم هانوتو وغيره على العرب وطعنه على تاريخهم ووصفه للإسلام بأنه عدو للعلم والمدنية .

لأن الضعف يوجد تسليما وخضوعا . وهذا ما تم فى ربوع أفريقية السوداء ، أما حيث ساد الإسلام فقد وقف المسلمون يقارعون الإستعمار وجهاً لوجه وبقى خطر الدعوة المحمدية ماثلا أمام المستعمرين ، ولذلك كثر أعداؤنا لأننا أقوياء ، والقوى يخلق أعداء لنفسه ، ومن هؤلاء جبريل هانوتو الذى تولى يوما الإمام محمد عبده دفعه عن الإسلام فى كتاب له مشهور ومواقف مشهودة .

ويذكرنى هذا بما قرأته فى مقدمة كتاب الإسلام وسياسة الحلفاء الذى كتبه أنريكو انسباتو (يقف العـــالم الإسلامى فى مواجهة أوربا موزعا بين أملاك الدول المختلفة والقوميات الحديثة يقاوم

(١) عبادة المدنيات القديمة أول درس لهدم ما بناه الاسلام .

بشدة وعنف وعناد معتمدا على وحدته الدينية وصبغته العالمية التى تعطى حركاته مظهراً ينفرد به دون غيره).

وعلى هذا رسمت الخطط لاستبعاد الإسلام ما أمكن من المناطق التى قد يسود فيها وفى هذه الناحية بالذات ظهرت قرارات لمؤتمر برازافيل ، تتفق مع قرارات حكومة السودان بشأن التضييق على حرية العبادة ، ومنع تخلغل الإسلام فى أفريقية الوسطى ، وهذا مما يجعل للإسلام قضية سوف نعرض لها يوما لعرضها على الضمير العالمى ولم تكن فرنسا بحاجة إلى إعلان الإتحاد الفرنسى والدعوة إليه ، لو كان الأمر متعلقاً بالمستعمرات الإفريقية وحدها أما والأمر متعلق بشمال أفريقية حيث يسود الإسلام لذلك قامت أمامها العقبات وحشدت القوات للتغلب عليه .

وقد كان من أيسر الأمور عليها فرض الثقافة واللغة والدين والاسماء الفرنسية وايهام الجنود السود[١] أن آباءهم من بلاد الغال وانهم فرنسيون دما وروحا وفيهم من يصدق ويتحمس لذلك .

اما والاسلام والعروبة بالمرصاد ، هنا يبدو الاتحاد مترددا يسير بخطوات وئيدة ويستنير بآراء هانوتو وغيره ، وفى ذلك يقول صاحب كتاب الاسلام وسياسة الحلفاء :

(اصبح للاسلام سياستان : واحدة استعمارية ، تتعلق بالمستعمرة

---

(١) كتب شاويش سنغالى بالجيش الفرنسى موضوعا تاريخيا فقال « ابائى من سكان ارض الغال »

وأخرى عالمية تتبعه وتلاحقه فى مشارق الارض ومغاربها ، وهما يلتقيـان فى ناحيةواحدة وهى ابعاد الأخطار ماأمكن تلك الأخطار التى يسببها للدول الاوربية وجود ملايين من المسلمين على الأرض يمثلون فى افريقية خطرا لايستهان به ، نظرا لازديادهم عاما بعدعام) فى القرون الماضية فقدت فرنسا مستعمراتها ، لأن البحر كان فاصلا والمسافات بعيدة ، واليوم تحاول فرنسا فرض إرادتها على اقطار شاسعة ، فاذا الاسلام أبعد غورا من البحار والمحيطات ، وهى لم تقدر عليه ، لأنه من نور الله ولذلك ستسير شعوب الجزائر وتونس ومراكش نحو التحرر والخلاص ، رغم المصاعب التى تقيمها فرنسا وحكوماتها المختلفة ، واتحادها ووحدتها ، لانها شعوب اسلامية عربية قوية لاتلين .

وها قد استعرضت فرنسا انواع الاستعمار المختلفة ، وبدا لها الاستعمار السوفييتى الروسى بلون خلاب ، وخيل اليها أنه قد قضى نهائيا على نفوذ الاسلام فى ربوع اسيا الوسطى ، وفى هذا خطأ كبير ، فأرادت أن تستعين بأساليبه فى هذه الناحية وفى بعض النواحى الأخرى ، ولذلك ترغب أن تؤسس اتحادها على شكل يشبه اتحاد روسيا .

[وسنعرض بعض قليل للاتحادين فى أول الفصل التالى] .

القسم الخامس

مابين الاتحادين الفرنسى والسوفييتى من تشابه

ما كنت أعتقد حينما كتبت الكلمة الثالثة عن الاستعمار الفرنسى والتى أشرت فيها إلى ثلاث هيئات اتحادية تقف أمام الأمم الاسلامية وحريتها أن تبرز المتناقضات بهذه السرعة فقد وضعت الاتحاد الهندوكى بجوار الاتحاد الفرنسى والاتحاد السوفييتى وقلت عنها أن كلا منها يعطى لنفسه مظهر حركة تقدمية يصبغها بصبغة التحرر ، ويريد أن يقنع الضمير العالمى أن الاتحاد هو وليد إرادة شعبية ، وأنه من مصلحة الأمم والشعوب الداخلة فيه ، ويعلم القائمون بأمر كل اتحاد منها أن هذا بعيد عن الحقيقة بعدا تاماً ، ولذلك سيكون كفاح الأمم الاسلامية فى طريق الاستقلال والتخلص من هذه السيطرة الاتحادية المفروضة عليهم شديدا فى الهند والمغرب ، قاسيا جداً فى أواسط آسيا ، ولكنى مؤمن وواثق باننا ستغلب

لا لأن الحق معنا وكفى ، بل لأن قوانين الكون الملازمة لطبيعة الأشياء وتجارب التاريخ معنا ، وستذهب قوات الطغيان التى تستعبد المسلمين أو تحاول ذلك هباء منثورا ، وتندك صروح بنيت على تضليل الناس .

ومن قبيل هذه الثورة القائمة علينا البرقية التى جاءت بأن البنديت نهرو يحذر الأمم العربية ويقول (إننا لا نعترف باستقلال أية دولة تقام فى الهند وسنعتبر الاعتراف من أية دولة أجنبية بهذا الاستقلال عملا لا ينطوى على الصداقة) (١)

وفى بعض ماورد بالجرائد المصرية مقال عنوانه (الباكستان خير أم شر) ويقول كاتبها أن استقلال المسلمين فى الهند يتعارض مع العالمية التى هى من مظاهر الكون ونحن لا نعارض هذه العالمية ، ولكننا نفرض استقلال البلاد الاسلامية كشرط أساسى للتعاون الاقليمى ثم التعاون العالمى والا تعرضت الجماعات الاسلامية للزوال وضاعت شخصيتها وانهد كيانها .

وأعود إلى فرنسا وامبراطوريتها وما تنويه من فرض الاتحاد على الشعوب العربية والاسلامية بعد أن رأينا رجال الفكر يسبقون التاريخ فى هذه الناحية ويرسمون خطط السيطرة والغلبة ، فقد ذكرنا فيما تقدم إشارة عن مؤتمر برازافيل الاستعمارى الذى عقد بافريقية عام ١٩٤٤ وجمع أساطين الاستعمار ودهاته ، واستعرض

---

(١) انتهت أزمة الهند بالاعتراف باستقلال الباكستان ، ولكن الولايات التى نزعت منها قد جعلت كيان الباكستان ضعيفاً والمستقبل محفوفا بالأخطار .

برامج المستقبل ، وأشار بتأكيد سياسة الاتحاد بين فرنسا ، وماتملكه من الأراضى الواسعة فى افريقية وآسيا وصهرها فى كتلة واحدة

ويهمنا أن نتتبع المسائل العامة التى دارت المناقشات حولها ، فقد برزت هناك فكرتان : فكرة التعاون ، وفكرة الادماج ، ولكل من الفكرتين أنصار وخصوم .

ومعنى التعاون إعطاء الأمم أو الاقاليم شيئا من الحرية والحكم الذاتى بالتدريج ، ثم دعوتها إلى التعاون مع الدولة صاحبة السيادة فى نطاق اقتصادى ، كما هو الحال فى بعض المستعمرات البريطانية ، ومعنى الادماج أن تفرض على الشعوب المحكومة أنواع من الارهاب والترغيب ، تنتهى إلى إيجاد شعور يقول : بأن مصلحة المجموع أن يندمج مع الأمة الحاكمة فى جنسية واحدة .

ويقول خصوم التعاون : إنه فى النهاية يؤدى مع الزمن إلى حياة الدومنيون الاستقلالية ، وهذا لايتفق مع المنطق الفرنسى الذى يميل الى المركزية ، ولايسلم بتوزيع السلطات لانه فى النهاية يعرض الكيان الامبراطورى إلى الانهيار .

ويقول منتقدو الادماج : اذا سرنا خطوات كبيرة فى سبيل ذلك وتكلم خمسون مليونا لغتنا ، واخذوا بثقافتنا ودخلوا مجالسنا النيابية ، وحصلوا على حقوق المواطنين ، وضعنا مستقبلنا بين أيدى ناخبين أجانب من

شعوب ملونة منحطة ، وقد تغمرنا موجات فكرية وثورية لانقدر على كبحها ، أو قد تتحالف هذه العناصر مع عوامل الهدم الفرنسية وتعمل مع احزاب اليسار ، لتفرض ارادتها : حينئذ يفلت الزمام من الأيدى الفرنسية الرشيدة العاقلة ، وتعرض حياة الأمة إلى اخطار جسيمة .

خرج مؤتمر برازافيل إلى الاخذبحل وسط ، يجمع بين التعاون والادماج ، فسياسة التعليم بنيت على إدماج الشعوب فى الثقافة الفرنسية . إذن يجب أن تشتد هذه السياسة التعليمية ، وان يكون هدفها اضعاف اللغات القومية ، وخصوصا اللغة العربية وفى المستعمرات الافريقيه تقرر منع التبشير المسيحى باللغات القومية ، وجعل تدريس قواعد الدين الكاثوليكى باللغة الفرنسية .

ولن أطيل على القارىء سرد بقية القرارات ، فهى مطبوعة . واذ ماذا يهمنا من أمر البلديات ، وطريقة انتخاب المجالس العامة بالمستعمرات ، وزيادة سلطة الحكام ، والتصديق على الميزانيات والقروض ـ مادامت السيطرة المركزية لوزير المستعمرات قائمة . اذا كانت سياسة المؤتمر ترمى الى تأكيد السياسة الفرنسية وتثبيت الرأى النهائى للجاليات الأوربية فى مستقبل المستعمرة ، وجعل الـــكلمة العليا للـكولون الفرنسى ، باعتباره ممثلا للأمة الحاكمة صاحبة الأمر والنهى والسيادة .

فالسياسة التعليمية اتجهت اتجاها إدماجيا ، مسترشدة بالنظم الروسية ، التى تستعين بالمدرسة على إخراج جيل من الناس ، يؤمن بالثورة وتعاليمها . كذلك المعلم الفرنسى من واجبه أن يفرض لغته ، ليخرج طائفة تفكر تفكيراً فرنسياً ، وتنطق باسان فرنسيا ، وتؤمن بعظمة وأهمية الحصول على الجنسية الفرنسية والافتخار بأن الفرد الأسود هو فرنسى أسود وأن اللون لا يمنع أنه من سلالة الغالين سكان فرنسا الأصليين وهذا نهاية ما يصل إليه الغرور الاستعمارى .

ولكن سياسة الإدماج تواجه الشعوب الإسلامية، والإسلام والعروبة فى عالم الاستعمار كما قررنا وباء يصعب مواجهته ، ويستعصى التخلص منه ، فهو راسخ فى عقول ملايين من الناس ، وهو كالنار تحت الرماد . وقد أمضى الاستعمار مع الإسلام عشرات السنين وكلما خيل إلى المستعمرين أنهم قضوا على مشاكله وتغلبوا عليه برزت لهم الأدلة على أنهم مازالوا بعيدين عن زمن القضاء على حيويته ، وأنهم مع ماأوتوا من قوة البطش وسعة السلطان أعجز من أن يكسبوا أمامه المعركة النهائية والقول الفصل .

من هنا فكرت فرنسا فى إيجاد مركز دائم للشئون الإسلامية بمدينة الجزائر ، وأطلقت على هذه الادارة وزارة تنسيق الشئون

الاسلامية، ولنلاحظ أن الاصطلاح الفرنسي يعتبر المسلمين كطائفة مهما كان عددهم كبيرا . أى أن هؤلاء الناس لا يكوّنون أمة من الأمم ، وليس لهم وطن ولا رابطة مع الأرض التى يعيشون عليها، فهم « رعايانا المسلمون » ؛ وهم مسلمون وكفى ، وهذا رأيهم وهو رأى خطير فى نظرى .

وتولى هذا المنصب فى الجزائر صديقنا الجنرال كاترو وهو الذى عرفناه فى سوريا ولبنان مندوبا ساميا ، ولمسنا فى شخصه اجتماع القائد والسياسى معا ، وبرهن على أنه صاحب عزيمة ودهاء ، وفكرة ومقدرة ، وهو يتظاهر بأنه صديق للإسلام والمسلمين ، وإنه يعطف على أمانيهم المشروعة، وأنه يدفع الظلم عنهم، وهو يمثل فى الوقت الحاضر فرنسا بموسكو عاصمة السوفييت ،قلت دائماً إن رجلاله مزايا كاترو، وإلمامه ، وفهمه لشئون الدنيا ، ودرايته بمشا كل الاستعمار لا يترك الوقت يمر أمامه من غير أن يشغله ببحث شئون الاســـلام فى روسيا . . نعم قد يكون اختياره كسفير لبلاده من قبيل الابعاد السياسى فى وقت ترفض العقلية الفرنسية وضع العسكريين فى الصف الأول ، ولكن كاترو له منزلته ورأيه وشخصيته ،وللاتحاد السوفييتى سياسة مرسومة تجاه المسلمين . حقيقة أن الناس قلما يتعرضون لها ولكن أعين الاستعمار لا تغفل عنها لأن روسيا فى توسعها ،

وانتشار نفوذها واجهت المسلمين كما واجهت فرنسا الاسلام من قبل ومن بعد .

ولكن تجارب روسيا مع المسلمين غير تجارب فرنسا . فالأخيرة كانت تحيا تحت سلطان الحروب الصليبية وتقاليدها ولا تزال إلى اليوم، وهي حروب اشترك فيها غيرها من الشعوب ، وكانت نهايتها محزنة ، لأن السيوف التي انتصرت هي سيوف المسلمين ، ومع هذا تقلب الكتب الفرنسية الحقائق ، وتجعل من الهزائم الفرنسية مفخرة للشعب ودوافع للعمل والجهاد ضد المسلمين .

أما روسيا فقد عاشت قرونا محكومة بالمسلمين ولاقت منهم شدة وعنتا وبين الكنيسة البيزنطية والمسلمين عراك طويل . (١) ولم تبدأ حملات روسيا بجد ضد الأراضي التي يسكنها المسلمون إلا في عهد كاترين الثانية ، إذ دخلت أقاليم إسلامية كبيرة تحت حكمها ، وكانت أساليب الحكم الروسية سهلة واضحة : ذبح المسلمين ، وتشتيتهم ، أو تركهم إذا قبلوا الدخول في المسيحية . ولقد دخل ملايين منهم في الجنسية والديانة ومن بقي محتفظا بديانته سرا أعلن إسلامه بعد ثورتي ١٩٠٥ و ١٩١٧ .

---

(١) كانت الحروب الأولى ضد خانات قازان وتتار الفولجا للتخلص من سيطرة المسلمين الذين كانت لهم السيادة على الاقاليم الروسية .

ولما اتسع ملك الروس فى آسيا الوسطى وقفقاسيا أخذوا يفكرون فى إيجاد سياسة إسلامية ، وأخذوا يقلدون الدول الاستعمارية الغربية ، ولكن ثورة البلاشفة قضت على القيصرية ، وأعلنت حقوق الشعوب وحريتها ، وسمحت للمسلمين باقامة شعائرهم الدينية بعد أن كانوا محرومين منها فى بعض المناطق ثم عادت فأعلنت الحرب على الأديان كلها ،وكان من الطبيعى أن يحارب الاسلام كغيره ،وهو قوة عالمية ثورية ، شأنه شأن الحركة الشيوعية إذ يحمل كل منهما لواء العالمية ، وتفنى فيه القوميات والعنصريات والطبقات . فالشيوعية تحاول دائما التغلب على الإسلام فى الجهات التى ساد فيها ولها فى هذا المضمار أساليبها الخاصة التى جاءت نتيجة للتجارب التى بدأها لينين فى سياسة التقارب مع الأمم المغلوبة فى ١٩٢٠ و ١٩٢٢ ثم انتهت إلى تحطيم الجمهوريات الوطنية ، وفرض الأنظمة الشيوعية والدخول فى سياسة اتحادية ، تخضع أراضى السوفييت كلها لسلطة موسكو المباشرة . أى افناء . حرية الشعوب الإسلامية .سواء فى اسيا أوقفقاسيا أو القرم

وكان أن واجه الشيوعيون مشكلة حكم امبراطورية استعمارية تحت نظام جمهورى اشتراكى ، وخطوا فى السنوات الماضية خطوات جبارة فى طريق الاستغلال واستثمار أراضى البلاد الاسلامية باسم جديد ، وأنظمة جديدة ،وفرنسا من ناحيتها تحكم ملايين من الشعوب

الملونة ، والامم الاسلامية . وتحاول أن تحتفظ بسيادة الجمهورية المركزية على أقاليم شاسعة فهما تتفقان فى معالجة مشاكل متشابهة تلتقى عندهدف واحد، هو المحافظة على وحدة امبراطورية استعمارية استغلاليه بأى ثمن.

واذا سرنا فى المقارنةمن الناحية الداخلية نجد أن فرنسا تحكم بلادا لها شخصيه أو شبه سيادة : مثل مراكش ، وتونس ، وبعض أقاليم الهند الصينية ، ولديها بقاع يحكمها أمراء وسلاطين بافريقيه . اما الاتحاد السوفييتى فبعد أن حطّم ممالك بخارى وخوارزم[1]، وحكم الاقطاعيين الذين عاشوا تحت ظلال القيصرية عاد فأنشأ جمهوريات ذات سيادة اسمية فى اذربيجان وتركستان وازبكستان وتاجيكستان والقرغيز ، واعطى لاقاليم أخرى نظام الحكم الذاتى مثل الداغستان وبشكيريا وغيرها .

وهذه الأقاليم التى عددناها إسلامية ، وأهلها مسلمون ومعظم أقاليم الامبراطورية الفرنسية أو اهمها من بلاد الاسلام ويسكنها المسلمون ، ولذلك يحلو لرجال فرنسا أن يقولوا عن بلادهم : إنها دولة اسلامية كبرى ، والسوفييت وان كانوا لا يقرون الأديان فانهم مع ذلك على اتفاق مع الاستعمار الفرنسى ، فى مواجهة المسألة

(١) امارة خيوة فى عصر القياصرة الروس

الاسلامية : باعتبارها معضلة تتطلب الحلول، ولها مشاكلها ومتاعبها ومضاعفاتها ، ولذلك تحتاج إلى دراسة وبحث ، ولهذه سياسة خاصة بها . أى أن للاسلام سياسة مرسومة فى كل من روسيا وفرنسا ترمى كل منهما إلى أهداف مختلفة، ولكنهما تلتقيان فى نهاية واحدة هى أضعاف الاسلام وتقويض اركانه والحيلولة دون قيامه بدور تاريخى

وكلاهما يسير على نهج الادماج ، ونقصد به صهر القوميات فى كتلة واحدة ، ولكن الاتحاد يسير على نمط خاص به فهو يفرض اللغة الروسية ، مع الفكرة الاشتراكية ، والفلسفة الماركسية ، ويقدمها فى قالب واحد . وسار فى هذا اشواطا حتى فى الجمهوريات المسيحية ، لأن حكومة الاتحاد قررت تشتيت مجلس السوفييت المحلى فى بلاد الكرج (جورجيا) لأنه عارض سياسة الاتحاد ، وقرر التمسك باللغة القومية ، وجعل لها المقام الأول فى التعليم وللروسية المقام الثانى ، ثم يتفق مع السياسة الفرنسية فى احياء اللغات اندثرت ، وثقافات اندرست ، حين يهاجم الوحدة الاسلامية فى آسيا الوسطى، باسم الفن والتاريخ والثقافة (١) المحلية

ويشبه هذا النشاط سياسة فرنسا فى التفرقة بين العرب والبربر

(١) من اكبر وسائل محاربة القومية العربية والاسلام تشجيع استعمال اللغة العامية فى الاذاعة والصحف والاغانى

حتى تظهر ثقافات متباينة فى كل رقعة ، ويفقد الاسلام تلك الوحدة التى اشتهر بها وعرفت عنه .

فلهذا وغيره يبدو الاتحاد السوفييتى فى أنظمته وكيانه كوحدة استعمارية ، تسيطر على أقطار المسلمين ، وتفرض عليهم حكما خاصاً كانموذج صالح لفرنسا ، يصح أن يحتذى به فى أشياء . والفرنسيون أذكياء وأهل منطق يعرفون تماما أن الأنظمة والدساتير لاتبنى الممالك ، وإنما القوة الدافعة هى التى تحميها . والقوة الدافعة فى أراضى السوفييت هى الحزب الشيوعى ، الذى يستند على قوته الثورية ، وأنه حزب عمالى ترتكز عليه الدولة وتخضع لمشيئته ويسيرها كما يشاء .

ولا تملك فرنسا هذه القوة المتصفة بالبطش والفتك ، إذ هى لاتزال تأخذ بأنظمة الدساتير الديموقراطية ، وتعدد الأحزاب فى الحكم .

وهناك مسائل أخرى تفترق عن السوفييت فيها . أهمها أنها تحترم الملكية الفرديه ، وتشجع الشركات والأفراد فى تولى الإنتاج الزراعى والصناعى ، بينما الاتحاد السوفييتى لايعترف بالملكية للفرد ، وإنما يأخذ بالاشتراكية ، ويجعل حق الملكية للدولة ، أو يعترف بالملكية التعاونية . وقد يلتقى النظامان فيما يخص الملكية بأراضى بعض المستعمرات . إذ يحرم التشريع الفرنسى على الأهالى

فى بعض المستعمرات ملكية الأرض ويسمح بها لشركات الاستثمار وللمستعمرين البيض. ولا نعرف مقدار حظ المسلمين فى المزارع التعاونية بالروسيا، فقد تكون بأكملها فى أيدى الروس، فهى لا تختلف إذن عن شركات الاستثمار الكبرى فى المستعمرات الفرنسية ولكن الثابت لدينا هو أن الأهالى المسلمين محرومون من حق الملكية فى جمهورياتهم فهم إذن كأهل المستعمرات الفرنسية السود فى هذه الناحية ولم يكن تطبيق النظام الاشتراكى أو التعاونى لصالحهم بل لتقوية الجاليات الروسية وزيادة افقارهم وضرب الذلة والاملاق عليهم بعد تحطيم الثورات التى قاموا بها [1].

هذه نظرات أولية تمكننا من تلبس بعض مايقال له فوارق، وبعض ما يلتقى النظامان الاستعماريان فيه من نواح. ولا نقدم جديداً حينما يتعلق الأمر بالأنظمة إذ هى الأسس التى يقوم عليها الاتحاد. وفرنسا تقدر الفوارق والاتجاهات فى الاتحاد السوفييتى، ولكنها تعجب من الأنظمة كدعامة للوحدة. فالدستور السوفييتى يقول: بأن الدولة اتحادية تقوم على أساس الاتحاد الاختيارى بين الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية المتساوية فى الحقوق.

وهذا نص مشجع لأن تأخذ به فرنسا فى نظامها الجديد خصوصا وأن معنى الاختيار غير معلوم لدى الروس.

---

(١) لا يتسع هذا البحث لشرح حال المسلمين فى انحاء بلاد السوفييت.

إذ لا يذكر العالم أن إحدى الجمهوريات الاسلامية بآسيا الوسطى جاءت إلى الاتحاد ، وانضمت إليه باختيارها ، وإنما دخلت الاتحاد بعد معارك دموية وقتال استمر طويلا ، ولذلك لن يكون هناك اختيار فى الاتحاد الفرنسى كما قلنا .

وينص الدستور السوفيتى على حق تقرير المصير ، ويعترف لكل جمهورية بأنها ذات سيادة . ولكنه يقيدها بالمادة ١٤ من الدستور نفسه ، وفيها كل ما يهدم شخصية واستقلال وسيادة الجمهوريات المقول عنها بأنها مستقلة وذات سيادة . وهذا النص يجعل حق تقرير المصير غير موجود ، ولذلك سنراه فى دستور الاتحاد الفرنسى وستتمسك به كل دولة اتحادية حينما ترمى إلى السيطرة والتحكم فى مصير الأمم الاسلامية .

ومن المفيد أن نعرض هذه المادة مع بعض التفصيل ليستيقظ الغافلون بمصر . فهذه المادة تجمع طائفة من الامور الهامة الحيوية لكل شعب منها ما هو سياسى وعسكرى واقتصادى ، ومنها ما هو ثقافى وتشريعى . فاذا بحثت عن الباقى من سيادة جمهوريات الاتحاد المستقلة وجدته ضئيلا بحيث لا يصح أن يقارن بالسيادة التى تتمتع بها أية ولاية داخل نظام الولايات المتحدة الأمريكية ، فاذا سلمنا بأن حكومة الاتحاد ترى أن من حقها عقد المعاهدات ، وحصر

التمثيل السياسى فيها وتسلم قضايا السلم والحرب ، وتنظيم الدفاع وقيادة القوات المسلحة ، وحماية سلامة الدولة المستقلة . فان هذه المادة تضيف أشياء أخرى تجعل النشاط الاقتصادى بأكمله خارج نطاق عمل الجمهورية المستقلة وبهذا يصبح لاستقلال وهمياً ولا فائدة منه إذتخضع المشاريع الصناعيةوالزراعيةوإدارةالمصارف ووسائل النقل والمخابرات ، ونظام النقد والتأمين ، وعقد القروض وكل ما يتعلق باستثمار الأراضى واستثمار الغابات ، ومساقط المياه فى يد حكومة الاتحاد .

وعلاوة على ذلك يسلب من الجمهوريات سلطتها على كل شئون التعليم والثقافة ، ويسلبها حقها فى التشريع الداخلى الصرف ، إذتبقى سلطة حكومة الاتحاد هى العليا فى كل ميادين المعارف والصحة ويخضع المحاكم والقوانين من مدنية وغيرها حتى قانون الجنسية وإقامة الأجانب وتنقلاتهم لحكومة الاتحاد هذا مع قرار الاتحاد بأن لكل جمهورية دستورها الخاص بها وهنا تهزأ حكومة السوفييت بالعالم حينما تقول :

أن لكل دولة من الجمهوريات المستقلة مطلق الحرية فى أن تنفصل عن الاتحاد السوفييتى .

ومن قبيل تحصيل الحاصل أن يقرر الدستور السوفييتى أنه فى

حالة التعارض بين القانون الخاص بأية جمهورية مستقلة والقانون الاتحادى وجب على الحكومة المستقلة تنفيذ قانون الاتحاد فلا توجد هيئة عليا كما هو الحال فى الولايات المتحدة الأمريكية للفصل فى تنازع الاختصاص أو تفسير الدستور.

من هذا نفهم ولع الفرنسيين بالاتحادية وأنهم بعد أن قلبوا انظمة الاستعمار وأساليبه من أمريكية وبريطانية وبرتغالية وهولاندية وجدوها لا تشفى غليلهم ، ووجدوا مع اختلاف الأهداف فى نظام الاتحاد السوفييتى مايصح الأخذ به ، والسير عليه إذ فيه تأكيد لسيطرتهم وابقاء لحكمهم.

ولذلك لم تخطىء النظر حينما جاهرنا بأن الأنظمة الاتحادية الفرنسية والتى فى بلادالسوفييت ومايجول بخاطر بعض الهندوس من إنشاء دولة اتحادية والقضاء على حرية المسلمين بالهند ترمى كلها إلى فرض انظمة وأسس رجعية تعسفية حينما يتعلق الأمر بمستقبل الشعوب الإسلامية وحريتها ، لأنها تعطى الاستغلال الاقتصادى والسيطرة والتحكم ثوبا جديدا

القسم السادس

فرنسا فى مراكش

بدأ الفرنسيون تنفيذ برنامجهم الإصلاحى على مراحل فى مراكش ، فقد نقلت إلينا الأنباء البرقية طرفا من أخبارهم ؛ وهى تتلخص فى بعض تغييرات إدارية ادخلوها ذرا للرماد فى العيون فقالوا إن الوزارة ستتألف من عشرة وزراء مراكشيين وعشرة من الفرنسيين ، واختير مستشار فرنسى يبحث القوانين واللوائح قبل عرضها على السلطان ، وصرح فرنسى مسئول بأن فرنسا تريد تحويل مراكش إلى دولة ديمقراطية حديثة ، كما ترغب باخلاص فى زيادة مسئولية المراكشيين فى حكم أنفسهم ، وهـــذه نواح جديرة بالبحث والتأمل .

ولقد كنا أول من أذاع شيئا عن اجتماع الدار البيضاء الذى حضره روزفلت وجيرو وديجول الفرنسيان ، وقلنا : إن أراضى تونس والجزائر ومراكش كانت وديعة بيد الحلفاء ، وقد أعيدت

للسلطات الفرنسية بعد أن تعهد رجالها لرزفيلت أن تسير هذه البقاع فى ركب الحضارة نحو الحرية ، وتقرير المصير . وشيء من هذا لم يحدث ولكن تحت ستار الإصلاحات الجديدة ، وتحويل مراكش إلى دولة حديثة ، وزيادة مسئولية المراكشيين فى حكم أنفسهم ـ تقدم فرنسا للعالم المتمدين مشروعا استعماريا ، له خطورته لأنه ضربة جديدة موجهة إلى استقلال مراكش ، وحريتها ومستقبلها ولذلك لم نستغرب أن رفض الأحرار المراكشيون هذه السياسة ونددوا بها ، وقالوا عنها « أنها تريد أن تغتصب البقية الباقية من مظاهر وجودهم » ونحن الذين تابعوا قضية المغرب من يوم أنزل الحلفاء جنودهم ، وأنصتوا طويلا إلى أقوال قواد الحلفاء ، وبعض رجال السياسة ، الذين تحدثوا عن مستقبل هاتيك البلاد ، وعرفوا الكثير من تحمس رجال فرنسا ، وتمسكهم بوحدة امبراطوريتهم ، ورفضهم الدخول فى أى حديث يتصل بحرية واستقـــلال شعوب المغرب .

لم نتردد فى أن نجهر بالقول لإخواننا أهل المغرب[1] أن الخطر الذى يبدو لنا هو أن توفق فرنسا لا قناع العالم أن سياسة الاتحاد الفرنسى مشروع إنسانى ، يدعو إلى رفع مستوى الشعوب ، ويعده

(١) نهاية القسم الثانى .

تنفيذه تحقيقا لما وعدنا به روزفلت فى اجتماع الدار البيضاء، أو أنه مرحلة فى طريق الرقى الاجتماعى.

ومراكش ليست دولة فى مجاهل الدنيا حتى تدرب على حكم نفسها، وقد عاصرت القرون، وكانت امجادها وبطولتها مضرب الأمثال، فهى دولة مستقلة ذات سيادة وصولة وتاريخ وشخصية قبل أن تعرف فرنسا شيئا من ذلك. وهى أمة موحدة قبل أن تحقق فرنسا وحدتها الأقليمية فى قارة أوربا، ولاخواننا المراكشيين جولات فى افريقية، وفى القارة الأوربية. وبين ملوك مراكش وملوك فرنسا مكاتبات ومعاهدات قديمة، عامل فيها كل واحد الآخر معاملة الند للند.

لهذا كله دهشنا من موقف فرنسا ورجالها بعد سنة ١٩١٢ وموقفها اليوم فى سياسة المقيم العام، التى يريد أن يفرضها على دولة قائمة ذات سيادة وشخصية دولية، وكنا نؤمل أن تغير دروس الماضى بعد الحرب العالمية الأولى ثم بعد الحرب العالمية الثانيه، شيئاً من أساليبهم وعقليتهم، ومراكش بلاد لم تفتح وإنما تعاهد سلطانها معهم، وحالفهم على شروط معلومة فاذا هم ينتزعون البلاد انتزاعا ويصبح المقيم العام سلطانا غير متوج له حكومة تجمع السلطات كلها بين يديه: من تنفيذ وتشريع وقضاء، ويسيطر رجاله على الشئون

المالية والاقتصادية والإنشائية ، ويضع يده على الحبوس والأوقاف وينتزع أملاك الدولة ، فيوزعها على المستعمرين من الفرنسيين .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل ضربت فرنسا بالمواثيق والعهود، التي أخذتها الدول عليها عرض الحائط ، فهى لم تحترم ماجاء باتفاق الجزيرة سنة ١٩٠٧ ولا ماجاء بالاتفاقات التي أعقبت حادث «أغادير» المشهور ، وكلها تنص على احترام سيادة سلطان مراكش ووحدة بلاده ، وبقائها بلادا مفتوحة لتجارة الدول ، وميدانا للنشاط العالمي.

وقد رأينا الأسلوب الفرنسي فى حكم البلاد التى نكبت به ينتزع السلطات جميعا من أيدى الحكام الوطنيين ، فتصبح الحكومة المراكشية التى يطلق عليها اسم (المخزن) صورة لاتملك من الأمر شيئا ، وإذا بدار المقيم العام بيدها السلطات الفعلية وهو يتولاها بواسطة مستشاريه ، على الطريقة الفرنسية المباشرة ، التى رأيناها فى سورية ولبنان أيام الانتداب .

تصور هذه الدار تتولى الأمن العام ، والجمارك ، والضرائب وتدير الأوقاف تفتح المدارس ، وتغلق الكتاتيب ، وبيدها التشريع والبرق والبريد وتسيطر على النقد ، ووسائل المواصلات ، وتمنح الأراضى لمن تشاء ، وتوزع الثروة على شركات الاحتكار والاستثمار

هذه هى مناطق القانون العام ، أى التى يسود فيها الحكم المدنى

أما المناطق العسكرية فهى تخضع لجبروت الجيش ، وضباطه السياسيين . فهناك يجمع القائد الفرنسى كل السلطات فى يده ، ولا مرد لحكمه . إذ تكفى إرادته لنزع الأملاك ، وتنفيذ حكم الاعدام والسجن ، واخلاء قرى بأكلها من السكان ، ولا يمكن مراجعة حكمه ، أو الاعتراض عليه ، أمام سلطة مدنية ، وأهالى البلاد من المسلمين حيارى بين براثن الاستعمار الفرنسى فى مراكش أذهم فى حالة حرب منذ عام ١٩١٢ لا يرتفع عن كاهلهم صوت الاحكام العرفية ولا يشعرون بالراحة يوما ، تؤخذ أولادهم للحروب ، ويرسل شبابهم الى المعتقلات والسجون

لقد آن للعالم المتمدين أن يفهم حقيقة الحال فى إفريقية الشمالية وحسنا فعل المجاهدون المراكشيون فى المبادرة إلى أمريكا ، وتعريف العالم بقضيتهم ، لأنها قضية عادلة ، فهم لن يقبلوا أن يدخلوا اتحادا فرنسيا يفرض عليهم فرضا ، وقد شرحنا أساليبه ومراميه وأهدافه ويؤكد سيطرة فرنسا وتدخلها فى شؤون بلادهم اجيالا من الزمن لاتزال فى عالم الغيب أو المستقبل .

إن كفاح أهل مراكش سيكون طويلاً وصعباً لاهوادة فيه ، لأن بلادهم موطن الثروة المعدنية ، واليها تتجه أنظار الاستعمار الفرنسى للحصول على المواد الخام من البترول والفحم والحديد وهذا الاستعمار

يفرط كما قلنا ـ فى ولايات من فرنسا فى أوروبا ولا يتنازل عن شمال افريقية وهو يعلم تماما أن أى تساهل أو اعتراف من جانبه باستقلال ، أو حكم ذاتى يمنح لأهل البلاد المراكشية معناه : انهيار الامبراطورية الفرنسية بأكملها فى إفريقية الشمالية .

فعلى الذين يتصدرون الحركة الإستقلالية فى مراكش أن يفهموا أن العراك سيكون شديدا وقاسيا ، وعليهم أن يكتسبوا المعركة الخارجية ، وهى معركة الدعاية لقضيتهم فى امريكا ، وفى بقية انحاء العالم ، عليهم أن يظهروا مساوىء الاستعمار وأضاليله ، وأن يجعلوا الدعاية قائمة فى كل مكان ، وان تمتاز بالثبات والرسوخ والهدوء والمداومة .

ففى مصر لا يكفى شعور الناس بالعطف على قضيتهم ، بل يجب إبرازها كل يوم فى ثوب جديد على صفحات الجرائد والمجلات ، بل نريد أن نسمع رأيهم وصوتهم ونرى مناظر بلادهم ومساجدها وأسواقها ، ونقرأ لأدبائهم وزعمائهم كل يوم ونود أن نشاركهم أفراحهم وأيامهم ، ونسمع أغانيهم ونرتل شعرهم ، وتظهر على مطبوعاتهم صور معاهدهم ورجالهم ومظاهر الحياة عندهم .

إننا فى حاجة إلى أن نتعرف على أهل المغرب جميعا لأننا فى فى مصر نعد أنفسنا أقرب أهل المشرق إليهم .

لقد تلاقت النفوس قبل اليوم . وارتبطنا بهم بروابط لا تنفصم عراها . إن فى مصر أسراً بأكملها تنحدر من تلك الأصول العربية التى جاءت من أرض المغرب .

إننا لا تطمئن نفوسنا قبل أن ينال المغرب استقلاله ويحصل على حريته .

القسم السابع

الاعتداء على الجزائر

« ياويلاه إن المصائب والنكبات وامتحان الدهر ليست
وحدها العائق الذى يعترضنا فى الحياة بل إن أعمالنا وجهودنا (١)
نفسها كثيراً ما تكون حربا علينا »

« فاوست »

ليذكر العرب جميعاً والعالم الاسلامى وسائر أمم الأرض أن فرنسا اعتدت بلا مبرر بل بسبق إصرار وتربص على حرية الأمة الجزائرية وكان ذلك بغير إعلان حرب ، ولا اخطار للدولة صاحبة السيادة ، وإنما جمعت وحشدت الجنود وأنزلتها فى يوم ١٩ يونيه سنة ١٨٣٠ عند الصباح فى مرسى سيدى فريج حيث انسحبت قوات والى الجزائر من البرج القائم ، حقنا للدماء وإثباتا للتعدى أمام طوفان الفرق ، التى جاءت من فرنسا بمدافعها وعتادها الحربى.
هذا اليوم يجب أن يبقى خالداً فى ذكريات كل فرد منا مهما كانت

(١) يرجع ضعف الامم الاسلامية الى فقدان الرجال والساسة ذوى البصيرة النافذة والاخلاص الدائم .

ثقافته ، ومهما كانت آماله . ولأهل الجزائر أن يرفعوا أيديهم بالاحتجاج على هذا العدوان ، وإن تنصت السموات العلا اليهم ، وتستمتع الأرض ومن عليها لشكواهم وآلامهم .

وليتخذ أبناء العروبة هذا يوم حداد . يقفون دقائق معدودة تحية المجاهدين والمقاتلين ، الذين جادوا بأرواحهم ، دفاعا عن حريات الأمة الجزائرية ، فى كفاحها الطويل وجهادها ، وليبق هذا اليوم الأسود قائماً بيننا حتى يصفح الله عن شعبه وأرضه ، ويرد إليهم حقه . وإلى أن تعود الحياه والنور إلى الشعب الجزائرى على الثرى الذى حمل امجاده والذى هو له وحده .

كان هذا الاحتلال نكبة كبرى على العروبة والإسلام ، لا للحوادث التى تمخض عنها من ضياع إستقلال تونس ومراكش ، ولا لحوادث الكفاح والقتال والتصادم التى دامت سنوات عديدة ، ولا لما أثاره من المعارك والمقاتل والأيام المشهورة وإنما كان محنة إزاء ما تبينه العالم من صمت المسلمين وجهودهم وتفرق كلمتهم . لقد كشفنا هذا العدوان الفرنسى أمام الدنيا وشعوبها ، كنا قوة تخشاها أحداث الزمن ، فاذا نحن لا شيء . كان العالم يحسب ألف حساب للروح التى تفيض حماسة وقوة ورفعة . تلك الروح التى أفرغتها تعاليم الإسلام على الأفراد والجماعات والشعوب ، فإذا هذه الروح

لاوجود لها إنها قد ماتت ولم يعد لها بقاء ولم تقم لها قائمة ، ولهذا حمل أهل الجزائر عبء القتال وحدهم وكان عبئاً ثقيلا عليهم . حقاً إنهم ماوهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ولكن للطاقة البشرية حدا ، إنهم دافعوا دفاع المستميت حتى ألقوا فى النهاية أسلحتهم .

هذه ناحية جديدة بالبحث والتحقيق . نقول : ماذا دهى العالم الاسلامى وأهله ؟ ماذا أصاب هذه الشعوب التى عهدناها فى التاريخ زاحفة على الأخطار تتلقاها بصدور ملأها الايمان — لا تلين يوم ترجف الراجفة ولا تخضع ولا تستأمن وانما تقوم للاحداث وتقعد؟ أين ذهبت تلك الحيوية التى كانت تتبع الرادفة بالرادفة ، وتهز بعزائم أهلها الدنيا وتواجه بصدور اهلها طوفان الحوادث ، فتعلو عليه ، والنصر من كل جانب يواتيها .

ولقد افتتحت هذا الفصل بجملة من فاوست ، قالها جوته الشاعر الالمانى ، وهى تلخص حال المسلمين فى افتتاح القرن الماضى إذ كانت قد خفتت منذ سنوات وقرون أصوات المعارك الزاحفة وانهدت صروح الممالك القويه ، وتفككت عرا الدنيا الاسلامية حينما اطلت طلائع القرن التاسع عشر علينا ، فأصبحت المدن التى كانت عامرة أنقاضا ، وهبط عدد المسلمين فى مصر وفارس وسوريا

والمغرب ، وضعف شأن المسلمين فى كل جانب ، ومنذ ابتداء القرن الثامن عشر لم يبق لهم إلا دولة آل عثمان ، التى وصلت جحافلها الى فينا مرتين ، ثم إذا هى تواجه الهجمات المتتالية فى جبهة البلقان والمجر ، وتدافع ببطولة واستماتة فمن كان بوسعه أن يخترق حجب الغيب قبل وقوع هذا الحدث الاعظم بثلاثه قرون ، ويجاهر المسلمين بأن مصائب القرن التاسع عشر وارزاءه كانت نتيجة للأخطاء ، التى ارتكبها أسلافهم بحروبهم وسياستهم وتفرق كلمتهم .

لم يبق من شك أن الحروب التى شنها سليم الأول على مصر وايران أضعفت الكيان الاسلامى ، كقوة فعالة ، ولا سيما إذا حللنا على ضوء المنطق الاسباب التى دفعته اليها ، فقد كانت مشاكله مع الدولتين من الأمور التى كان بوسعه حسمها ، دون أن يتورط فى معارك مع دول اسلامية هى بطبيعتها حليفة له ، فكان من أثر حروبه ان زالت من الوجود دولة مصر ، التى كسبت الحروب الصليبية فى مواجهة أوروبا ، وناهيك بذلك مفخرة لها .

إن الضربة التى وجهت إلى مصر فى سنة ٩٢٣ هـ كانت ضربة ضد العروبة والاسلام ، إذ كان من أثرها أن انهار ركن من دعائم دنيا المسلمين ، كان له المقام الأول فى الدفاع عن أراضيهم وصد أعدائهم ، وسرعان ماظهرت للعيان فداحة هذا الرزء حينما لم يمض

نصف قرن حتى أعقب ذلك هبوط سريع فى عدد السكان ، ونقص فى العمران الذى كان قائما بأراضى مصر والشام . بل إن أثر الفتح العثمانى كان شديدا حتى على الحركة العلمية والأدبية التى كانت سائدة بمدارس القاهرة ، ودمشق ، فلم نعد نسمع بمصر عن رجال من أمثال ابن خلدون والسيوطى والمقريزى وغيرهم من أئمة الدين والفقه والشريعة . ثم انظر إلى أثر هذا العدوان ضد بلاد الاسلام فى العقلية الأوربية نفسها . فهذه جمهورية البندقية استمرت فى علاقات حسنة مع مملكة مصر طول القرون الوسطى ، وإنك إذا ذهبت إلى هذه المدينة وزرت قصر الدرجات تجد فى إحدى قاعات العرش رسما كبيرا يمثل سفراء ايران ، بين يدى عاهل البندقية . إن هذه الصورة توحى بأشياء كثيرة ، فان هذه الجمهورية بعد زوال مصر أخذت تبحث عن حلفاء لها من بين المسلمين .

والمعروف أن دوق البندقية كان عدوا للأتراك العثمانيين ، فهو يضع فى مواجهة العالم اعتزازه بتحالفه مع أعداء الدول العثمانية من المسلمين ، وليس أبلغ للدلالة على تفرق كلمة المسلمين وتشاحنهم بعد حروب سليم الأول من هذه الصورة القائمة حتى اليوم درسا وعبرة لمن يريد أن يعتبر .

وما يقال عن إيران ينصب على سلطنة مراكش ، فهى قد

عاشت أكثر من ثلاثة قرون فى شبه عزلة تامة ، نتيجة للسياسة العامة التى وضعها سليم والتى أراد أن يفرض بها سيادة الخاقان الأعظم على بلاد المسلمين وممالكهم ، وهى سياسة لم تكن تسمح بإيجاد علاقات واضحة صريحة مع دولة مراكش المستقلة ، ولم يكن من نتيجتها سوى توالى المحن والنكبات وتحضير الظروف وتوطئة الأحوال الملائمة لذلك الهجوم الفرنسى ، الذى تمثل فى الاعتداء على القطر الجزائرى الشهيد .

قارن هذه السياسة المبنية على الدعوة إلى السيطرة العامة والخضوع لسلطان الخلافة مع المرونة التى أظهرها ملوك مصر ، ابتداء من من الملك الظاهر بيبرس مع خانات التتار والقبيلة الذهبية وأصحاب عروش القفجاق فى روسيا تجد أنهم نقلوا هذه البلاد من الوثنية إلى الإسلام .

أما السياسة العثمانية فلم تنجح ، مع أنها كانت قريبة منهم ، لأنها جاءت للملوك هذه البقاع ، وفضلت فرض نوع من الوحدة والسيادة عليهم ، وكان هؤلاء فى عنفوان قوتهم ؛ فرفضوا الاذعان لسلاطين آل عثمان ، وكانت دولة الخلافة فى إبان مجدها وفتوتها فتمسكت بسياستها . وبعد قرنين ضعف الجانبان ، ودخل خانات القرم طوعا تحت كنف السلطان الأعظم ، فإذا هو عاجز عن

حمايتهم ، وإذا بالقوى تتجمع ضد الدولة العثمانية وكان أول من جاهر بالعصيان جماعات القوازق ، الذين خضعوا لها ، واستأسد حكام موسكو ، فأصبحوا بعد ضعفهم وخضوعهم للملوك المسلمين اباطرة وقياصرة . وكانت قلاع العثمانيين على نهر الدنيبر فى شمالى رومانيا وفى وسط بلاد المجر كافية لصد جموع أوروبا مجتمعة، ولكن ماذا تفعل الجحافل العثمانية وقد امتدت الجبهة شرقا ، وظهر عدو جديد هو روسيا التى أخذت تكتسح الامارات الإسلامية حتى وصلت إلى شواطىء البحر الأسود ، الذى عرفته القرون بحيرة إسلامية .

لقد ظهرت للعيان أخطاء قرنين من الزمن لأن حلفاء الدولة العثمانية الطبيعيين هم سكان الفولجا المسلمين وأمراء القرم ، وهم الذين كان بوسعهم دفع الشر إبان قوتهم ، وكان المنطق والعدل والأخوة تملى بتقوية هذه الامارات وتشجيعها ، بدلا من مناوأتها ، فإذا هى أول ضحايا الزحف المسكوبى وإذا بالجبهة العثمانية تنهار بسرعة ، وإذا بجهود السلطنة والخلافة ينصرف من يوم حصار فينا إلى عهد حملة نابليون ١٨١٢ فى صد الهجمات المضادة التى شنتها أوربا فإذا وقفت فى صدها عالجها الدب الروسى الأسيوى ، مستعينا بمن كانوا حلفاءها . لقد كانت محنة كبرى ولكنها من صنع أيدينا قبل أن تكون من عمل أعدائنا ، فالويل لنا إذا تكررت مرة أخرى .

فهل كان من حرج على سلاطين آل عثمان لو اتبعوا أساليب وسياسة سلاطين القاهرة فى علاقتهم مع مسلمى الفولجا والقرم، لقد أثبتت الأيام أن ملوك مصر كانوا أبعد نظراً ، وأكثر انتباهاً.

ولذلك لم تكسب الدولة العثمانية كثيرا فى سياستها الإسلامية وجاء اتساع رقعة راضيها فلم يمكنها من أن تصير دولة متماسكة قوية ومع خدماتها الجلى للإسلام جاء وقت كانت هى وحدها الدولة الإسلامية التى تتلقى الصدمات التى يوجهها أعداء الإسلام وخصومه إلى أممه . وفى غمرات هذه الحالة جاءت حملة فرنسا على القطر الجزائرى ، فإذا القوى مبعثرة ، والأيدى مغلولة ، وأراضى المسلمين الشاسعة خالية من السكان .

نذكر هذا ونكرره إزاء الصيحات التى نسمعها نحو الوحدة، وتأليف دولة موحدة إسلامية . ونحن نبادر إلى القول بأن المتناقضات التى أورثتها لنا الأطماع والحزازات ، والعقد النفسية فلنحذر من الوقوع فى أخطاء السلف لأن هذه الأخطاء قد تكون أكثر وبالا علينا من المصائب والنكبات التى يسببها الأعداء لنا .

وكلمة هادئة نسوقها هنا هى : أننا من دعاة حرية الشعوب الإسلامية ، ولكن مع الإسراع فى الأخذ بمدنية القرن العشرين، ومع العمل على نقل الشعوب إلى وعى قومى صحيح ، مبنى على العلم

والنور وفهم الحقائق والتثبت منها ، بحيث لا يمكن التأثير عليها وقيادتها إلى أعمال تحمل من المبدأ جرائم الفشل ، وتنتهي إلى نكبات(١)

ونحن تضعف من شأن المسلمين ، فعلى ضوء تجارب الماضي ودروسه القاسية تبنى وتؤسس دعائم المستقبل فنحن طلاب حرية وتقرير مصير واستقلال ، كل شعب داخل نطاق حدوده القومية والتاريخية ولسنا من أنصار الفكرة العثمانية التي رأينا أثرها بعد ثلاثة قرون ممثلة في ضياع شمال أفريقية ، وإنما ندعو إلى تأسيس علاقات جديدة بين الوحدات العربية والإسلامية تنمو على ضوء التجارب مع الزمن نحو التحالف والتكاتف والتعاون ، حتى يعاد العمران وتنشأ المواصلات ، وتختفي الأنقاض والخرائب وتحطم أغلال الجهل التي أورثتها لنا أجيال ، عشنا فيها تحت كنف الاستعمار والاستعباد .

هذه ناحية هامة أعادتها إلينا ذكرى احتلال الجزائر ، وما لمسناه من خمود أية فكرة عليا للدفاع عن هذا القطر الشهيد ، فلننظر من ناحية أخرى لهذا الحدث الكبير في تاريخنا ، لنعرف الدوافع الكامنة وأثرها .

لقد رأينا جيوش المسلمين تسير لتحرير العالم ، حتى إذا انتهت إلى اسبانيا عبرت جبال البرانس ، ودخلت فرنسا بقيادة عبدالرحمن ابن عبد الله الغافقي في سنة ٧٣٢ ميلادية .

(١) كتب هذا قبل نكبة فلسطين .

وكانت انتصاراته سهلة على حكام البلاد فوصل زحفه إلى وادى نهر اللوار ، ولكن فى وسط الوديان الشاسعة بين بلدتى توروبواتييه حيث المروج الخضراء التقت جموع العرب لأول مرة جموع مع عنصر أوربى مقاتل هم الجرمان ، وعلى رأسهم شارل مارتل ، ودارت رحى معركة قال عنها كتاب أوربا : هى المعركة الفاصلة بين الإسلام وأوروبا المسيحية على زعامة التمدن ؟ .

ولم تكن هذه المعركة بين الإسلام والمسيحية لأن أغلب مقاتلة الجرمان كانوا وثنيين ، ولكن الدعاية والرغبة فى التهويل والتفخيم أسبغت على هذه المعركة ثوباً فضفاضاً ، لأن نتيجتها كانت انسحاب العرب من وسط فرنسا إلى جبال البرانس ، فقالوا هنا التقت أوربا وآسيا . وفى هذه المعركة انهزمت قوى الإسلام ، ومن الغريب أن يذكر بعض المؤرخين أن بين من حارب فى صفوف المسلمين أمراء مسيحيين .

لقد شاءت الروح الصليبية السائدة فى أوربا أن تجعل من معركة توروبواتييه ابتداء الهجوم المضاد على المسلمين ، لا فى فرنسا وحدها بل فى إسبانيا ، واستمرت هذه الدعوة قائمة على الكراهية والافناء سائدة لمدة ثمانية قرون ، وهى تلاحق العرب ، حتى صفيت المشكلة الإسلامية فى بحر من الدماء والمذابح فى اسبانيا ، وغادر آخر ملوك غرناطة ساحل الجزيرة الخضراء .

ولقد ظن المسلمون أو خيل إليهم أن نكباتهم قد انتهت ، وأن جحافلهم قد آن لها أن تستريح ، وكانوا فى ذلك من الواهمين لأنه لم تمض ثلاثة قرون حتى لاحقتهم الحروب فى عقر ديارهم ، وقذفت فرنسا — التى حكمها العرب وفتحوا ديارها — بحملة قوامها أربعة وثلاثون ألفاً من خيرة جنودها وأسطول عدته أربعمائة سفينة ومائة وعشرين مدفعاً تجرها الخيل .

ولم تكن هذه أولى الحملات ، بل تقدمتها محاولات أخرى ، لقيت فيها مدينة الجزائر الكثير من عبثهم ، وهدموا أحياء منها ، ويذكر التاريخ مثل هذه الهجمات على مدن السواحل الأفريقية كلها ، حتى مدينة الأسكندرية ، وبيروت ، وسواحل الشام أصيبت فى عهد الدول العثمانية وقبلها بشىء من هذا العدوان على أيدى قراصنة الأوربيين .

ومع ضعف المسلمين وتفرق كلمتهم تمكن أهل المدن الساحلية وهم أهل المثاغرة والرباط من رد هذه الحملات إلى البحر والمحافظة على السواحل الإسلامية ، واسترجاع المناطق التى سيطر العدو أحيانا عليها ، ولعل هذه الانتصارات السهله هى التى جعلت أمراء المماليك بمصر يستصغرون شأن حملة نابليون ، وجعلت أهل الجزائر يستصغرون شأن الحملة الفرنسية عليهم ، وكانوا فى هذا من المخطئين

فدفعوا الثمن غاليا بهزيمتهم وموتهم ، وأضاعوا البلاد من أيديهم .

وبهذه الحملة انتقلت حلقات الهجوم المضاد لمعارك توروبواتييه إلى الشاطىء العربى ، وبدأت حرب الموت والفناء ، تشنها قوة تعتقد أنها تستعيد مجد روما على الرمال التى حملت أعلام روما القاسية ، وتستوحى فى قتال المسلمين ذكريات الحروب الصليبية ، ومعارك لويس التاسع فى أفريقية . وهكذا شاءت فرنسا أن نعيش نحن معاشر العرب بافريقيه الشمالية فى غمرات الهجوم المضاد ، الذى بدأه الجرمانى شارل مارتل علينا .

ولم يكن هناك مايبرر هذا العدوان فقد تقرأ الكثير مما ذكره المؤرخون عن إهانة الوالى حسين باشا للجنرال دوفال Deval قنصل فرنسا حينما قدم عليه للتهنئة بعيد الفطر سنة ١٢٢٣ ه ، وما سبق هذا من النزاع على الديون التى ماطلت فرنسا فى دفعها لحكومة الجزائر . والدور الذى لعبه كل من يعقوب كوهين بكرى وميخائيل أبو زناك اليهوديين فى هذه القضية ، وهل ترفع إلى مجلس الجزائر أو إلى محاكم باريس التجارية للفصل فيها ، ثم احتجاج القنصل ومغادرته البلاد ومن معه من التجار الفرنسيين ، وما قيل من أن هذا القنصل تعمد ايجاد هذا الحادث بتوجيه عبارة غير لائقة للوالى حينما طلب إليه إجابة صريحة من حكومته ، فرد عليه أنه ليس من

عادة ملك فرنسا أن يكاتب من هو دونه بغير واسطة ، فأثار بقوله غضب الوالى .

إذ ما الفائدة فى تعرف أسباب العدوان بين القوى والضعيف والنية مبيتة والاستعداد قائم ، ولم يكن إختيار الجنرال ليرأس القنصليةوهوعسكرىإلا توطئة وتحضيراً للاعمال الحربية القادمة .

ووقعت الواقعة فى التاسع عشر من يونيه سنة ١٨٣٠ ، إذ أقدمت فرنسا بغير إعلان حرب، ولا إخطار للدولة صاحبةالسيادة(١) أو إنذار للوالى — وأنزلت عساكرها فى مرسى سيدى فريج ، وهى بقعة خالية من الناس ، لاتحرسها غير قوة صغيرة من الجنود فى برج قائم ، رأت أن تنسحب بغير قتال ، حقناً للدماء أمام طوفان الفرق النازلة من الأسطول بمدافعها وعتادها الحربى .

فلنذكر جيداً هذا اليوم ولا تنسه لأنه يحمل ذكريات العدوان الفرنسى على الأرض الأفريقية على بر الجزائر الشهيد . وبعد مائة عام أى فى ١٩ يونيه سنة ١٩٣٠ احتفلت فرنسا بهذا اليوم ، فأثارت بعملها حمية شرذمة من الجزائريين وإحرارهم ، وخرجوا من ديارهم يجوبون الممالك حتى لا يروا بأعينهم فى ديارهم وأوطانهم ذل يوم يحتفل به الغاصب ، ويرفع أعلامه على أنقاض الوطن الجريح ، والشعب الشهيد . فلقينى جماعة منهم بمدينة استانبول ، وذكروا لى

---

(١) الدولة العلية العثمانية .

مشاهد مما يلقونه من عنت، وماصارت إليه أوطانهم ومرابعهم. وهى البلاد العزيزة التى حملت أعلام المرابطين والموحدين، وقبائل المسلمين من العرب والبربر، وكانت لهم السياده والقيادة، والحول والقوة، أيام كانت ترتج أمام امجادهم وعزائمهم جحافل الفرنجة، وتخشاهم الدنيا.

وجاء منهم فريق إلى مصر فأمضى أياماً: من غير أن يسمع لهم صوت أو أنين، ولما جاء الفوج الثانى أرجعهم بوليس مصر وشرطة الموانى، بحجة أن مصر لم تكن مذكورة على جوازات سفرهم[1]. وضحكت من الأيام التى جعلت بوليسنا حريصاً على تنفيذ تعليمات حكومة الإستعمار الفرنسية متيقظاً ألا يدخل مصر العربية من هم أقرب الشعوب إلينا، وألصقهم بنا، ومن يحملون تأشيرة مصرية قانونية. ولا أدرى من الذى لفت الأنظار اليهم، ومن حال بينهم وبين مصر، ومن أعطى التعليمات لاعادتهم؟

وارتجت مدن الجزائر فى يونيه سنة ١٨٣٠، وقامت القائمة فيها والوالى يجمع جنده ويحشدهم، ويرسل إلى البلاد والأقاليم يدعو للجهاد والدفاع ويطلب النجدة من وهران وقسطنطينية، وخرجت الجموع لمهاجمة معسكر الفرنسيين، فاقتحموا المراكز الأمامية أمام تراجع الجنود الفرنسية، حتى إذا صاروا تحت مرمى المدفعية

(١) اى ضمن البلاد المرخص لهم بدخولها.

حصدتهم بنيرانها حصدا ، فاختلت صفوفهم ، واخلوا الأماكن التى احتلوها ، وتعقبهم الفرنسيون ، وكانت هذه أول ملحمة على أرض الجزائر فى يوم ٢٥ يونية سنة ١٨٣٠ .

وكانت قوات والى الجزائر محتشدة داخل حصون فى ناحية أبى جارية، فخرجت منها للقتال ، والتحمت مرة ثانية مع الفرنسيين فلم تصبر على النيران وارتدت ، وأخلت هذا المعسكر ، فاحتله العدو ثم تقدموا منه ، واحتلوا بساتين المدينة وأطرافها وبدءوا حصارها

وبعد أيام أخذوا فى إطلاق نيران المدفعية ، فأصابت قذائفها برج مولاى الحسن ، وكانت فيه مخازن البارود ، فأصابتها قنبلة ، سببت انفجارا هائلا ، فاندك البرج على من فيه وتطايرت حجارته وتهدمت عدة منازل ، ومات خلق كثير تحت الأنقاض .

وبهذه النائبة اهتزت اركان المدينة ، وفقدت روح المقاومة ، واستولى الرعب والقلق على السكان ، فقرر الوالى تسليم المدينة .

وفى صباح يوم ٦ يولية سنة ١٨٣٠ الموافق ١٣ المحرم سنة ١٢٤٦ دخلت جيوش فرنسا من الباب الجديد ، وأنزلت الأعلام العثمانية من القصبة والأبراج ، ورفعت الرايات الفرنسية ، واحتلت الجنود القصبة والقلاع والشواطىء ، وزالت من الوجود حكومة الجزائر الإسلامية .

وتم العدوان على الأرض التى امضت فرنسا السنين تحلم بوضع اليد عليها، بعد أن فقدت أملاكها فى الهند وأمريكا وجزائر المحيطات ولم يرد فى ذكر شروط الهدنة والتسليم نص على الاحتفاظ بحقوق الأهالى وتقرير مصيرهم سوى النص الاستعمارى الذى وضعه نابليون فى مصر وهو : احترام الديانة المحمدية ، وعدم التعرض لنساء المسلمين .

وهو النص الذى ما انفك دعاة الاستعمار يرددونه فى كتبهم وأبحاثهم وخطبهم دليلا على روح التسامح ، ويقولون ماذا يريد المسلمون وقد تركنا لهم حرية التدين ، وحفظنا لهم أعراضهم ، كأن حياتهم وقف على هذا لا تتعداه ، أو كأنهم أهل آخرة لا تشغلهم أمور الدنيا ، فلا تهمهم العاجلة ، ماداموا قد ضمنوا الآجلة ، وأخذوا بأيديهم مفاتيح الجنان .

ويقول مؤرخو المسلمين : اهتزت لهذه النائبة المشارق والمغارب ،وكانت من أعظم النوائب ، والحقيقة أن العالم الإسلامى الذى عهدناه يهتز لما يحدث فى ركن منه لم يتحرك لهذه الكارثة ولا لما تلاها من نكبات ، وإنما تحرك القطر الجزائرى وحده ، أمام العدوان ، وقامت قبائله ورجاله يذودون عن حياضهم ، وانضموا تحت لواء الأمير عبد القادر ، يكتبون بدمائهم ملحمة من ملاحم الحروب

القاسية فى تاريخ الإسلام الذى واجه الحقائق ، وقال : لقد تبينت ما قدر على وهأنذا مستعد للاقدام .

ولكن بعد مضى قرن من الزمن يقف أهل الجزائر مرة أخرى للامتحان أمام فرنسا ، ويرددون هذا القول ، لقد عرفوا وتبينوا ما كتبته لهم الأقدار ، فهل هم على عهد الأقدام قائمون ؟

هذا ما ستفسره الأيام .

وسنرى فى القسم التالى ما كان من هذه الواقعة الخالدة .

القسم الثامن

الامير عبد القادر الجزائرى

زعيم وأمـــير وجندى وقائد ثورة

« إذا صقلت بارق سيفى ».
« وأخذت بالقضاء يدى »
«رددت الانتقام على أعدائى».
« وفرضت القصاص عليهم ».
نشـــيد موسى النبى فى
سفر التثنية

رأيت كيف تلقى العالم الإسلامى بوجوم انباء الاعتداء الفرنسى على الجزائر ، وكيف احتلت فرنسا السواحل والناس فى شغل عن هذا كأن الأمر لا يعنيهم ، فألقى عبء الجهاد على أهل الجزائر ، يقاتلون ويقتلون ويشردون . والقـــطر الجزائرى ساحل ممتد

الأطراف على مسافات شاسعة ، فأصبح لكل مدينة على البحر جبهة قتال ، قائمة بذاتها .

ففى جبهة مدينة الجزائر زحف القائد الفرنسى إلى الداخل ، واحتل مدينة البليدة وقدم أهلها الطاعة بين يديه ، ولكن دعوة الجهاد والدفاع عن الوطن انتشرت بين القبائل فى الجبال المحيطة ، فتجمعت الجموع ، وزحفت إلى القتال ، وفى اليوم الثالث من احتلال المدينة اقتحمت قوات المجاهدين أسوار البليدة ، وهزمت جنود فرنسا ، فاضطر القائد العام أن ينسحب مع من بقى من جنده عائدا إلى الجزائر ، حيث دعى إلى بلاده ، فآثر أن يعش بأسبانيا وجاء قائد آخر أخذ يدبر الأمور ، لاتمام الاحتلال ، تارة بالسيف وأخرى بالخديعة ، وبذل الوعود .

فى هذه الأثناء اتجهت الأنظار إلى سلطان مراكش ، واجتمع أهل العقد والحل من سكان الجزء الغربى ، وأرسلوا وفداً إليه ، يطلبون معونته ، فأجابهم إلى مطلبهم ، وبعث بأمير من أولاد عمه ، فلقيه الناس بالطاعة ، ووصلت طلائعه إلى ناحية مليانه شرقا ، ولكن فرنسا أسرعت وكلفت ممثلها لدى البلاط الشريفى أن يحتج على هذا التدخل ، فاضطر سلطان مراكش أن ينسحب بجنوده ، وأن يستدعى ابن عمه إليه ويترك أمر الجهاد لأهل البلاد .

كانت الدعوة إلى الجهاد عامة يشعر بها الناس كافة : من عرب وبربر ، ومن أهل الحضر ، وأهل الجبال والبادية ، وكانت الحرب في كل ناحية قائمة ولكن كانت تنقص الدعوة القيادة المنظمة التي تجمع الشمل ، وتنظم الجهود ، وتحرك المشاعر ، وتدفع هذه القوى الروحية نحو الغاية الكبرى .

ولقد شاءت العناية الإلهيه أن تختار هذا القائد من جبهة وهران على الحدود المراكشية ، ففي سنة ١٨٣٢ قامت سرية من المجاهدين عقد لواؤها للسيد عبد القادر بن زيان بحركة كشفية ، حول أرباض المدينة وفي موضع يقال له خنق النطاح التقت السرية بفصائل العدو واشتبكت معها في معركة تعرضية ، وفي اليوم التالي أدركتها حشود المجاهدين فدخلت القتال متراصة زاحفة ، فانتصرت انتصاراً باهراً وفر العدو منهزما ، متراجعا إلى مدينة وهران.

وفي وسط المعركة ظهرت مخايل النجابة والبطولة ، والقوة والفتوة على الشاب عبد القادر بن السيد محي الدين الذي ما انفك مع والده يحرض المسلمين على الجهاد ، ويبوىء المقاتلين مقاعد للقتال كان في الخامسة والعشرين من عمره ، وقد عرف الناس فيه الحزم والعزم والعقل السليم والصبر في القتال ، فجاءت المعركة فإذا بالشجاعة

وقوة البأس تظهران عليه ، وهو يخترق الصفوف ويباشر القتال بيده ، لنصرة دين الله . وبينما هو يخوض وسط المعمعة تحامل عليه فارس من فرسان فرنسا برمحه ، فإذا بالطعنة تمر تحت إبطه الأيسر فشد عليه عبد القادر بعزمه وقوته ، وهوى بسيفه على الفارس ، فإذا بالسيف يقطع كتف الفارس نصفين ، فكانت آية من آيات الله تناقلها الناس ، وسرى ذكرها بينهم . وتلقى جواده ثماني طعنات ، ثم أصيب بالرصاص تحته ، فنزل وترجل واستمر يقاتل فى مواجهة العدو ، وهو على قدمه ثابتاً فى مواقعه ، حتى جاء النصر من عند الله ، وتقهقر العدو منهزما ، لا يلوى على شىء ، وبات المسلمون ليلتهم فى التهليل والتكبير .

هذه بداية القائد الشاب بطل الاستقلال الجزائرى ، وصاحب المواقف الخالدة ، بين سنتى ١٨٣٢و١٨٤٧ ، الذى تمثل فى عبقريته عراك أمة وكفاح شعب يقاتل فى سبيل مثله العليا والذى أمضى ستة عشر عاما فى الحروب لم يدع فيها القتال والتصادم والكر والفر دفاعاً عن حومة الدين ، وعن حرية الوطن الشهيد وظهرت فيها صفاته وميزاته للقيادة والزعامة ، وضرب للناس مثلا بتمسكه بالمبادىء والأهداف التى قام من أجلها ، فأسبغ عليها عملا متواصلا لا يحيد عنه ولا يرجع

وبرزت نفسه القوية التى لاترهبها الأهوال والنكبات ، ولا تغيّرها الانتصارات المتتابعة ، ولا تنقص من حماسها النكبات والهزائم .

ستة عشر عاماً من المعارك المتواصلة ، لاتتخللها غير فترات قصيرة من السلم والراحة ، أفردها للتنظيم والإنشاء ، والدعوة إلى الله ، والعمل لبناء دولة ناشئة ، القيت أعباؤها عليه بأكملها ، إذ واجه مشاكل السياسة مع مصاعب الحروب ، وعالج الهزائم والدسائس بنفس عالية ، فيها قبس من أخلاق السلف الصالح ، وفيها تلك النواحى القوية التى أفرغها الإسلام على قواده وزعمائه من قوة أمام الأخطار ، وصلابة فى الحق ، وتمسك بالعروة الوثقى مع تواضع ، وصبر على المكاره ، وحوادث الزمن .

كان هذا فى وقت عصيب واجهت فيه الجزائر أكبر محنة فى تاريخها ، يوم دعيت وحدها للدفاع عن أراضيها ، ويوم ضعفت النفوس ، وتفرقت القوى بين عناصر متشاحنة ، وقبائل متنافرة . هنا ظهرت شخصية عبد القادر كمنشىء دولة ، وقائد جيش ، وزعيم أمة .

إن عظمة عبد القادر لاتظهر فى انتصاراته وحدها ، وانما فى تغلبه على متاعبه ، وفى شجاعته وسط الهزائم ، والدعوة إلى الانشقاق والخيانة وفى مواجهة دعاة الويل والهزيمة . وزمرة

المنافقين ومن لازمهم) هنا تعلو حيوية عبد القادر على الحوادث حينما تراه مجاهداً ، لاتهمد عزيمته وسط الأخطار ، ومكائد العدو والبحر مغلق أمامه ، والعالم الإسلامى يغط فى نومه ، فلا يخفف عنه إلا ذكر الله ، والدعوة إليه وإيمانه بأن إرادة الشعب الجزائرى قد تمثلت فى إرادته ، وان الله قد اختاره لعمل كبير ، هو انقاذ هذه الأمة وقيادتها إلى الجهاد فى سبيل الله.

تقلب صفحات تاريخه ، وتسمع أقوال الخصم عنه ، وتنصت لنظمه وشعره ، وتقرأ رسائله ، فتلمس رجلا قد أوتى حظا من الإيمان ، والثقة بالله : بما جعله فوق المستوى العادى للرجال كان ممن إختارهم المولى جل وعلا لعمل خالد ، فقد كان يعلم بأن أمامه دولة قوية ، قد أفرغت فى القتال كل قوتها ، وصممت على فتح بلاده ، واستعانت بما أخرجه الفن والعلم فى الحروب ، وقد خرجت من تجارب حروب ومعارك ، ومع ذلك وقف وقفته ، وكان يشعر بأن أعداءه فى الداخل لا يقلون خطراً عن أعداء الوطن ، فتقبل بالرضا حكم الأقدار ، وقاد بلاده هذه السنين ، وهو واثق من نفسه لا معين ولا حليف له ولا أمل لديه إلا همة السيوف التى خرجت من أغمادها ، ووقفت معه .

نعم فى وسط المكائد والهزائم والدعوة إلى الهزيمة تعلو قوة عبد القادر ، فتخلق من الهزيمة قوة ، وتدعو إلى الله ، وتعمل على جمع الشمل فيقود الأمة الجزائرية إلى كفاح طويل إلى المجد .

ذلكم هو بطل الاستقلال الجزائرى وأول مسلم تلقى بصدره حلقات الهجوم المضاد ، الذى شنه الغرب علينا لانتزاع أراضينا .

حينما أكتب عنه أستعيد ذكرى حادثين أثّرا فى حياتى : أما الأول فصورة زيتية للأمير عبد القادر رأيتها فى السوق الخيرية التى أقيمت بحديقة الأزبكية ، لنصرة المجاهدين من أهل طرابلس ، لما اعتدت إيطاليا على أراضيهم . رأيته على جواده ، وقذائف المدافع تنفجر من حوله ، فوقفت مأخوذاً ، وكنت فى العاشرة ، فإذا بصاحب المؤيد الشيخ على يوسف يحدثنا عن بطل الجزائر ، ومن ذلك اليوم انطبعت فى نفسى صورة القائد الزعيم وحرصت أن أقرأ عنه ، وأتعرف إلى معاركه وأيامه .

أما الحادث الثانى : فيوم وقفت على قبره تحت قبة سيدى محيى الدين ابن عربى بمدينة دمشق . لقد كان الشوق إلى زيارة الضريحين شديداً طوال سفرى من أنقرة ، ولما تم اللقاء ، وقفت أمام هذا القبر أستمطر الرحمة على بطل الاستقلال ، ومرت أمامى صفحات الجهاد وأسماء البلاد فى الجزائر :

وهران . قسنطينة . تلمسان . المعسكر . مستغانم . البليدة . مليانة ، وذكريات المعارك الخالدة فى فى رأس العين ، وخنق النطاح ووادى الزيتون ، وغيرها من مواقفه .

وفى باريس صورتان كبيرتان ، تمثلان عراك الأمير وجنود فرنسا ، وتقتحم الصفوف أعرفهما . قيل أن الأمير وقف أمامهما عند زيارته للعاصمة الفرنسية وقال : أراكم تمثلون جنودنا منهزمة ، فهلا نظرتم ورسمتم المعارك الكبيرة ، التى ولى فيها جنودكم الأدبار.

وفى قصر العجزة حيث متحف الجيش الفرنسى نجد الآثار والأعلام والأسلحة من بقايا حروب عبدالقادر ، لقد كنت ألمسها ثم أقبل يدى التى لمستها وانحنى أمامها ، وأقول هل أعيش لأرى الجزائر حرة ، وقدخلعت استعبادها ، وأسمع أناشيد الأمير من مقصورته التائية ترتل فى مدارس القطر الشهيد .

ونحن لنا دين ودنيا تجمعّا
ولا فخر إلا مالنا يرفع اللوا
وانا سقينا البيض فى كل معرك
دماء العدى والسمر أسعرت الجوى

* * *

أريد أن أشرح معاركه ، وأكتبها ليقرأها أبناء مصر العربية ،

ويروا آيات المجد والبطولة، ولكن الزمن يسير بخطوات سريعة ، وأريد أن أحدثهم عن يوم تجمعت فيه أحكام القدر ، فألقى البطل سلاحه ، واستأمن للخصم ، على أن يذهب للاسكندرية ، فخنثت فرنسا بإيمانها ومواثيقها وعهودها ، وقادته أسيراً إلى فرنسا حيث أمضى مع والدته العجوز وأهله خمس سنوات فى الأسر ، يحن فيها إلى البلاد التى أراد دفع الشر عنها ، ثم أطلق سراحه ، فإذا طريقه إلى دار الخلافة حيث يلقى السلطان عبد المجيد العثمانى . وبعد إقامة يسيرة فى بروسة يذهب إلى دمشق ، وهناك يعيش حتى يرقد رقدته ليترحم عليه محبوه . أما أنا فقد قرأت حين وقفت على ضريحه قوله تعالى (وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين)

(آل عمران)

ذلك لإيمانى أن أمة تنجب عبد القادر لن تموت ، بل ستبعث بعثاً يهز الأرجاء ، لأن الدرس الذى ألقاه علينا كان درساً يحرك النفوس ، ويدفع للعمل لقرون قادمة . إنه قوة من قوى الذات الإلهية التى بعثها لخير الناس ولما خطه الله فى سجل القدر ، من أن تحيا الأمة الجزائرية ، لتعود إلى أيامهـــا الأولى ، أيام المرابطين والموحدين .

القسم التاسع

كفاح الجزائر أمام جحافل فرنسا

قال ضابط البحرية اليابانى :

إنك لم تفهم بعد الدرس الذى تلقيناه من أجدادنا بهزيمتهم وموتهم . أنه درس صبر وعناد ، ويقظة واحتراس ؛ ومكر وخديعة لكى ننتصر على أعدائنا ذهبنا لمدارسهم ، وكانت عقولنا لا تهضم تعاليم الغرب وأساليبه . فشعرنا بحاجتنا إلى عقلية أوربية ، فأقدمنا بكل صعوبة وألم وحسرة على التحرر من أشياء عزيزة علينا للحصول عليها ، ولكن هذا التغيير كان لازما لأجل الخلاص ؛ لأجل إنقاذ الوطن ؛ لكى ننتصر على الأعداء فى الميدان .

(من كتاب المعركة)

إننا لا نحاول سرد حوادث هذا الكفاح لأن من السهل تتبع معاركه وأدواره وحلقاته من كتب التاريخ فى مختلف اللغات ، ولذلك سنكتفى باعطاء فكرة إجمالية ، أو رسم صورة عامة من التى يراها

واقف على مرقب أو مركز للرصد على رابية عالية تشرف على الحوادث والتطورات وعلى مواقع القتال ، ونرجو أن نوفق فى إخراج التاريخ صورة حية ، وذكرى لمن شاء أن يتذكر ، من دروسه وتجاربه وعبره ، حتى لا تتكرر الأخطاء مرة أخرى فى تاريخنا وكفاحنا[١] .

كانت حكومة الجزائر الإسلامية من الحكومات التى ليس لها شبيه أو مماثل فى التاريخ ، إذ كانت تابعة للدولة العثمانية ، ولكنها تتمتع بسيادة وحرية ، وكانت خارجة على القانون الدولى ، والعرف السائد بين الأمم الأوربية ، ومع ذلك فهى تفرض الأتاوات على على دول الغرب ، وتتقاضى رسوم المرور فى عرض البحر ، وإلا هاجمت أساطيلها المراكب التجارية ، وأحيانا ثغور هذه الدول ومرافئها ، ولهذا سالمتها الحكومات المختلفة ، وأذعنت لقبول ماتفرضه هذه الحكومة عليها ، فكانت فرنسا ترسل إليها هدايا معلومة مالية أحيانا ، وأخرى معدات وآلات حربية ، وكان هذا شأن بريطانيا معها والدانيمارك ومملكة صقلية والبرتغال والسويد والنرويج ، حتى ولايات المانيا والولايات المتحدة خضعت لهذا النظام العجيب الذى فرضته حكومة قليلة العدد ، ولكنها كثيرة البطش .

---

(١) كتب قبل نكبة فلسطين .

وكانت قواتها المسلحة تتراوح بين ١٥ و ٢٠ ألف مقاتل ، من الجنود الأتراك[1] ، أو ابناءهؤلاء من أمهات وطنيات ، وكان ينضم إليها رجال من قبيلة زواوه ، وهى التى حرفها الفرنسيون ، فأصبحت فرق الزواف المشهورة التى قامت على متطوعى هذه القبيلة ، وبقايا جند حكومة الجزائر النظامية .

وعلى هؤلاء الجنود اعتمد الدفاع عن المدن الساحلية عند مهاجمة الفرنسيين ، ولما ثبتت قواعد حكمهم جندوا من الأسرى أول فرقة وطنية للاستعانة بها .

أما فى الداخل فقد قامت قوة الدفاع من جماعات المقاتلة من رجال القبائل ، وهم مشاة وفرسان على طريقة حروب البادية ، ولما اشتدت المعارك فكر الأمير عبد القادر فى إدخال النظام العسكرى الحديث ، مقلدا المحاولات التى حاولها كل من محمد على ، والسلطان محمود العثمانى ، ولا شك فى أن هذه المحاولات قد بهرت أنظاره ، وتطلع إليها ، وحاول تقليدها .

وفى سيرة الأمير ذكر ابتداء هذه الحركة وانتشار الدعوة إلى تجنيد الأجناد وتنظيم العساكر تحت اللواء المحمدى ، وإيجاد دفاتر لقيد الجنود ، الذين بدءوا تدريبهم ، وأتموا تعليمهم ، ورسم الذين حملوا السلاح منهم كما فيها وصف كامل لأصناف الفرق ، من مشاة

---

(١) دخل الاتراك المغرب فى عهد ابن طولون ، وهاجروا اليه فى عهد الايوبيين جماعات .

وفرسان، ومدفعية ، وطريقة التعبئة ، والسير والنزول فى المعسكرات ويظهر أن هذه القوة مع اهتمام الأمير عبد القادر بها لم تكن هى التى يقع عليها عبء القتال وحدها وإنما كان الكفاح موكولا إلى رجال القبائل ، وكانت هى بمثابة قوات ثانوية مساعدة ومكملة .

أما الفرنسيون فكانوا على علم تام بطبيعة الأرض الجزائرية من ناحيتها الجغرافية والطبوغرافية ولديهم الخرائط المفصلة عنها فقد أثبتت المراجع الرسمية أن نابليون الأول أرسل ضابطا فرنسيا إلى الجزائر عام ١٨٠٨ ، وكلفه أن يدرس بالتفصيل مشروع الحملة الفرنسية ؛ ووضع الخطط العسكرية الشاملة ، وقد قام هذا الضابط بمهمته ، وصحح المواقع على الخرائط ، ورفع تقريراً وافياً عن الشاطىء الأفريقى والأماكن التى تصلح لإنزال الجنود وأشار إلى الطرق والآبار والوسائل التى تؤدى إلى حشد القوات وربطها ، والسير فى حلقات الحملة ، ولم يكن لدى الفرنسيين عند عدوانهم سوى إخراج هذا التقرير من ملفات وزارة الحربية وتقييد مافيه وهذا ما حدث فى عدوان سنة ١٨٣٠ إذ انزلت الفرق فى الأماكن المختارة فى هذا التقرير وتحت تجارب حملة مصر عند احتلالها مدينة الإسكندرية واختيارها منطقة العجمى التى تشبه سيدفريج ولم يكن الفرنسيون على جهل بأساليب القتال لدى المسلمين ، فهم قد حاربوا المماليك فى معركة

انيابه[1] ، ورأوا ما يمكن أن تقوم به أساليب القرون الوسطى أمام جنود معبأة على الطرق الحديثة . ثم هم لم يهملوا تتبع التطور الذى أدخل على أنظمة جيوش المسلمين ، فقد كان من ضباطهم وتوادهم من رافق حملات مصر ضد الوهابيين ، وكانوا فى الصفوف الأولى يقيدون حركات المصريين ودفاع الوهابيين ، ويكشفون عورات الجانبين ، ثم يستفيدون من كل ذلك فى حروبهم بالجزائر .

واختير للقيادة البرية الماريشال بورمون وهو من رجال سنة ١٨١٥ أى من الضباط الذين قاتلوا فى معركة واترلو ، وحضروا معارك نابليون ، فأسندت إليه آمرية حملة بنيت على تقرير ضابط من ضباط نابليون ، وكان على الأسطول الأميرال دوبريه ، ولكل منهما طابعه الخاص ، ورغبته فى الإنفراد والتسلط فما لبث أن دب الخلاف بينهما ، ولولا تعليمات الحكومة الصريحة أنه إذا اختلف الرأيان فضل رأى المريشال ، واسندت إليه القيادتان البرية والبحرية لاستفحل بينهما النزاع ولفشلت الحملة .

ولعل أعظم ماساعد الفرنسيين على التغلب هو أعمال المدفعية التى تجرها الخيول ، فقد امتازت منذ الساعة الأولى كما ذكرنا بقوة نيرانها ، وتوفيقها فى إصابة الأهداف وسرعة حركتها ، فكانت أول عامل من عوامل النصر لديهم . كانت كمدرعات هتلر ، وفرقة

---

(١) كانت معركة الاهرام قاضية على فكرة ان جيوش للماليك لا تقهر .

البانزر الألمانية فى الحرب الأخيرة وهى الميزة التى كانت لدى الفرنسيين على جند حكومة الجزائر وعلى العرب المجاهدين . ولولا هذه القطع من المدفعية لكانت الحرب بين الفريقين على مستوى واحد، من تكافؤ معدات القتال .

فلتنظر إلى ساحل يمتد الأميال ، عليه مدن ومرافئ متعددة ، ويتكون الداخل من سلاسل جبال ووديان ورمال ، تصلح للحروب وتسمح للقبائل والعشائر التى تسكنها أن تتولى عملياتها بكل سهولة ضد الجيش المهاجم سيما وهى من جماعات ألفت الحرب .

على هذا الميدان نزلت قوات فرنسا بمعداتها الثقيلة ومهماتها الأوروبية لتواجه أهل البلاد ولديهم ثلاثة أصناف من المقاتلة : جند حكومة الجزائر وحكام المقاطعات ، الجند النظامى الذى أنشأه الأمير عبد القادر ثم العمود الفقرى للقتال وهم رجال القبائل الذين لبوا دعوة الجهاد .

هذه هى حرب الجزائر التى اشتدت وطأتها على أربعين ألفاً من الجنود الأوربيين ، اصطلوا بمعاركها ، ومشوا إليها تحت وهج الشمس ، فتغيرت سحنتهم ، وتبدلت لديهم ملابس الميدان ، وأصبحوا مع الزمن كقطيع منفصل عن العالم ، لا يعرف سوى الحرب والدمار وإسالة الدماء على الارض الأفريقية. هذا جيش أفريقا ،

الفرنسى ، الذى ولد ونشأ وترعرع فى معارك الجزائر، وحروبها القاسية.
ودارت رحى الحرب سنوات والهزائم تتولى والمصاعب تتضاعف.
وليس لدى الفرنسيين الخبرة الواسعة بالإدارة والحكم ، فهم تارة يجنحون إلى الشدة ، ويقنعون أنفسهم إنها هى الحزم ، وأخرى يتقربون زلفى إلى الأهالى ، وفى أوقات يقدم قوادهم على عمليات حربية ، فيها المجازفة والتسرع ، فترتد عواقبها وخيمة عليهم .
من وسط هذه النكبات ظهرت فكرتان: الأولى إنشاء المكاتب العربية التى أطلق عليها فى النهاية إسم المكاتب الوطنية. والثانية تجنيد أهل البلاد
وقد ظهرت بوادر النجاح فى الناحيتين ، إذ بالاعتماد على الفرق الوطنية المقاتلة وبعد احتلال مدينتى بون ووهران ، واتباع خطة الدفاع أمكن انقاص القوات الفرنسية من ٣٧ إلى ١١ ألفاً فعد هذا نجاحا للقيادة .
أما المكاتب العربية فهى التى وضعت سياسة التخريب والتشريد[١] وهى إحراق المناطق المزروعة ، ومصادرة قطعان الماشية ، التى تملكها القبائل العاصية ، والاستحواذ على الأطفال والنساء كرهائن ، والفتك بهم إذا استمرت الحرب ، وأخيراً تطور هذا النشاط إلى القمة ، واتجه إلى بذر الشقاق بين عناصر وطوائف الأمة الجزائرية ، وخلق قضية العرب والبربر ، فكسبت هذه المكاتب فى هذا النشاط من المعارك أضعاف ما كسبته فرنسا بقوة السلاح .

(١) لو قرأ المسئولون أساليب فرنسا فى الجزائر لما وقعت نكبة فلسطين .

وكان الأمير عبد القادر أول ضحايا عمل هذه المكاتب فإن قواد فرنسا حاولوا كثيرا أن يعقدوا اتفاقا معه ، ولما توصلوا لذلك ، واعترفوا باستقلاله وأمارته سلطوا مكاتبهم عليه ، ووجهوا المطاعن بواسطة وكلائهم وخدامهم ، فقالوا أنه حالف الكفار ، واعداء الدين ، فأصبحت بيعته باطلة ، ووكالته على الناس غير قائمة ، وعرفت هذه المكاتب السياسية أن تجعل بين أبطالها من هم من رجال الدين والطرق والزعامة ، وجندت من يتظاهر بالجهاد والوطنية ، وأصبحت مع الزمن من أخطر المنظمات الاستعمارية وأشدها وطأة بما تملك من الوسائل والقوى الخفية ، مما يعجز الناس عن تصديقه ، ولقد عشنا فى كثير من بلدان الشرق ، ورأينا أمثال هذه المنظمات تعمل فى هدم الكيان الإسلامى والاستقلالى ، ورأينا أناسا يقودون المظاهرات الوطنية ، ويخطبون فى الجماعات ، ويجاهرون بمبادىء متطرفة ، ويكتبون عن أنظمة للحكم ، يسارية أونازية ، ثم يكتشف بعد زمن طويل ، وبعد فوات الفرص أنهم مقيدون كخدم لهذه المنظمات الخطرة ، يتلقون وحيها ، ويعملون بأوامرها ، وقد وصل بعضهم إلى المال والمركز والجاه ، تحت ستار التضحية والعمل والإخلاص فطوبى لهم .

ولهذا يجدر بالأحزاب والمتصدرين للجهاد فى سبيل المثل العليا

أن يرقبوا الأنصار والأتباع ، قبل الخصوم والأعداء ، وأن يقوموا من بين وقت لآخر بغربلة صفوفهم ، واجراء حركة تطهير ، لأن الدول الاستعمارية وطدت سلطانها بهذه المنظمات ، وبمن يتبعها من الرجال المنبثين فى كل جهة والذين يشايعون الاستعمار وتلعنه ألسنتهم ويتظاهرون بالتطرف لاخفاء حقيقة الأمر .

ولقد تمكن الأمير عبد القادر من إيجاد دولة عربية مستقلة ، عاهدت الفرنسيين على السلام ، واحتفظت بقواها كاملة ، بعد أن حققت ما ترمى إليه بانتصارها فى ميدان القتال ، ولكن الدولة التى عاهدها كانت تفكر قبل أن توقع على المعاهدة فى نقضها فما ان وقعت عليها حتى بدأت ترسل النجدات تترى ، وأخذت تثير القبائل عليه .

ويقول الفرنسيون فى ذلك « إننا لم نعقد مع أمراء المسلمين معاهدة وإنما عقدنا هدنة لكسب الوقت، حتى يتم تحطيم الجبهة الشرقية ثم نعود إليهم فى وهران . »

هذا ماحدث فإن ضغطهم تحول فجأة من جبهة الأمير عبد القادر إلى جبهة قسنطينة على حدود تونس ، حين عبأت فرنسا قواتها بكاملها ، وزحفت على المدينة فى هجمتين : فشلت فى الأولى فى فبراير سنة ١٨٤٧ وكان ذلك قبل التوقيع على معاهدة تفنا مع الأمير، ونجحت

فى الثانية بعد نقل حاميات الغرب فاقتحمت المدينة المحصنة فى اكتوبر سنة ١٨٣٧ .

ومن ذلك يتضح أن قواد فرنسا بعد أن أدركوا فداحة حرب الجزائر أخذوا ينسقون خططهم الحربية، فوضعوها على ان تنفذ على مراحل، إذا أتموا مرحلة، انتقلوا لغيرها، ووضعوا المبدأ الثابت وهو شراء النصر والغلبة بأى ثمن، حتى لا تفقد فرنسا هيبتها العسكرية .

ولذلك وصلت قوة جيوشهم إلى ٥٦ ألف مقاتل فى سنة ١٨٤٠، واستدعت فرنسا بعض الكتائب الممتازة من أصناف القناصة التى كانت تعد من قبيل فرق الكوماندو فى العصر الحاضر، لتفوقها فى التدريب أى زهرة الجيوش الفرنسية .

أما الأمير فقد آمن بعد مفاجأة الفرنسيين لعاصمته بالفرق الكبير (بين الجنود المنتظمة والجنود المتطوعة) ولذلك انتهز فرصة عقد المعاهدة وعزم على إنشاء جيش نظامى حديث فعقد مجلسا عاما من رجال الدولة وأعيان الرعية وخطب فيهم خطبة أوضح فيها فوائد العسكر النظامى ومنافعه وأخبرهم أنه اعتزم على تنظيم عدد منه فأجابه الجميع، ونودى أنه صدر أمر مولانا ناصر الدين بتجنيد الأجناد وتنظيم العساكر . . فمن أراد الدخول تحت اللواء المحمدى ويشمله عز النظام فليسارع إلى دار الأمارة والمعسكر، ليقيد أسمه فى الدفاتر الأميرية .

ومع انتصارات فرنسا فى جبهة قسنطينه أخذت تظهر بين جنودها آثار الحروب الإفريقية ومتاعبها ، فقد ساعدت سنوات السلم على ازدياد حوادث العصيان بين الجنود الأوروبيين ومخالفة الأوامر ، وعدم الاذعان للقواعد المعمول بها فى الفرق الفرنسية باوروبا ، نتيجة لاختلاف البيئة والجو ، بل أن مضى السنوات أبان اختلال الأنظمة الصحية وأساليب التغذيه ، واضعف النظام مما أدى كما قلنا إلى الإستهانة بتطبيق القواعد العسكرية ، وظهور حوادث العصيان ، وأعقب ذلك نسكبة مليانة التى أظهرت للعيان ضعف قوة المقاتلة لدى الفرق الفرنسية الصميمة ، وفقدان الروح العسكرية ، ودرجة الضبط والربط ، التى عرفت عن الجيش الفرنسى إزاء هذه النكبة اضطرت فرنسا إلى تغيير قيادتها العامه فى الجزائر برمتها وأجبرت على إدخال أنظمة جديدة للجيش وإلى العمل على رفع مستوى الحياة فى الشكنات والمعسكرات والتشديد فى المحافظة على روح المقاتلة والكفاح فى المستوى المعتاد ، بعد أن كانت هبطت هبوطاً ملموساً فى المعارك الأخيرة .

ولم يستفد الأمير عبد القادر من هذه الفوضى الضاربة أطنابها لما ينقصه من خبرة وإلمام بأساليب الأوربيين وأنظمتهم وإلا لضربهم ضربة ميته وقت شدتهم .

ومن كل ذلك تخرج بنتائج مؤلمة .

إن جهاد أهل الجزائر كان مجيداً ومشرفا لهم ، ولكنه لم يكن موحداً تتولاه هيئة قيادة عامة ، كان جهاداً مرتجلا ، ولم يكن هناك ارتباط أو تفاهم أو تآزر بين مختلف الجبهات .[1]

إن الأمير عبد القادر بقي وحده يجاهد ، فلم تصله أية مساعدة من تركيا أو مصر .

إن عبقريته ظهرت فى المعارك التى انتصر فيها ، ولكن لم يدعمه أحد من القواد أو الفنيين الاوروبيين .

إن متاعب العدو ومشاكله بقيت مكتومة من علم الأمير وقواده

إن المكاتب العربية التى أنشأتها فرنسا كانت على علم تام بمشاكل الأمير ومتاعبه وكانت تزيدها وتحركها وتشعل نيرانها إذا همدت .

إن السلم الذى حصلت عليه فرنسا كان هدنة لكى تتمكن من توجيه ضرباتها إلى جبهات أخرى ، ثم تعود إلى الجهة التى سالمتها لتقضى عليها .

فى وسط هذه الحروب تبدو حكمة الضابط اليابانى أنه أخذ بالعقلية الأوروبية لأجل الخلاص ، لأجل إنقاذ الوطن لكى ينتصر على الأعداء: وهذا هو الطريق الذى يؤدى الى كسب المعركة .

---

(١) ظهرت هذه الاخطاء فى حملة فلسطين ١٩٤٨.

القسم العاشر

الاستعمار الفرنسى فى الجزائر العربية

يوليه ١٨٣٠ — يوليه ١٩٤٧

« نحن نقص عليك نبأهم بالحق »
قرآن كريم

إنه نبأ هذه الأمة الجزائرية العربية ، التى تسكن أرض الجزائر ولها على هذا الوطن الحق الطبيعى التاريخى الثابت ، الذى لا تضعفه أقاويل فرنسا وادعاءاتها ، لأنه منبعث من ثنايا القرون العديدة التى أمضتها هذه الأمة على أرضها ، وهى تتمتع بكامل شخصيتها ومميزاتها ، لا يشاركها فيها أى مشارك ، ولا ينازعها فى امجادها أى منازع .

إنها قضية تسعة ملايين نسمة من المسلمين ، تحاول فرنسا أن تجعل منهم قطيعاً فى بلادهم ، فى الأرض التى حملت تاريخ آبائهم وأجدادهم . أتدرى إنهم محرومون من حق سياسى أو اجتماعى أو ثقافى ؟ . وأنهم لا يستطيعون أن يجهروا بأقوالهم ومشاعرهم ، لأن

حرية القول ، وحرية الاجتماع ، وحرية الصحافة ، بل حرياتهم الدينية محرمة عليهم .

ولكى تحتفظ فرنسا بإدارتها الاستعمارية وجبروتها ، تلجأ إلى فرض نوع من الرقابة البوليسية لا يقل عن أشد أنواع الجستابو ، الذى فرضته ألمانيا النازية ، والجيبيو الذى فرضته روسيا السوفياتية على أراضيها . إنها تجعل من إدارة الأمن العام والمكاتب الوطنية أداة للارهاب والتشريد والتجسس ، وكبت الحريات لدرجة أنها تصرف خمس الميزانية ، على هذه الاداة البوليسية الجبارة .

تصور حكومة تشترى كيانها وحكمها وادارتها ، بأن توزع خمس أموالها على هيئة بوليسية للقمع والإرهاب . ماذا يبقى لها أن تفعله فى ميادين الحياة العامة ، ونشر التعليم ، والصحة . وهى مضطرة أن تحتفظ بجانب هـذا بمبالغ للصرف على الجيش والقوات المسلحة الأخرى .

لقد عرفنا شاتينيو Chataigneau سكرتيراً عاما لمفوضية فرنسا بسوريا ولبنان ولمحنا فى أحاديثه وأقواله الرجل الفرنسى ، المتمسك بمبادىء الثورة الفرنسية ، وتقاليدها المنبعثة ، عما أعلنته عن حقوق الإنسان . كان يصرح بهذا وبلاده تحت الحكم النازى وسيطرة جيش الاحتلال ، ودارت الأيام فإذا به يشغل مركز الحاكم

الفرنسى العام . إنه يمثل الجمهورية بيلاد الجزائر، وهاهو ذا قد لبس لباس الاشتراكية ، وجاهر بحقوق الأمم المظلومة ، ولكنها فى نظره وفى عقيدة أمثاله من اليساريين : من اشتراكيين وشيوعيين قاصرة على الأمم الأوربية وحدها . أما شعوب الشرق ، وأمم الاسلام فهى فى الجزائر ، وشمال إفريقية ، وفى بخارى ، واواسط آسيا ـ سواء فى تحمل الضغط والخضوع لسيطرة الإستعمار الفرنسى أو السوفييتى .

ماذا يقول حاكم الجزائر الاشتراكى . إنه يقرر فى خطابه الذى ألقاه فى يوم ١٩ ديسمبر سنة ١٩٤٥ بالمجلس المالى الجزائرى (إن تضخم أرقام الميزانية راجع إلى زيادة عدد الموظفين فى إدارة الأمن العام .)

أى أن حكومة الجزائر الإستعمارية الرجعية التعسفية ، والتى يوجد على رأسها حاكم إشتراكى تشترى وجودها بثمن باهظ ، من حياة الشعب الجزائرى . إذ تفرض عليه الجهل الدائم ، لتعيش مع جيش موظفيها . إنها تترك الأمراض وتسرى وسط جماعاته والمنون تأكل من أطفاله ، لكى تعيش هى مع جيش من الموظفين الفرنسيين يخدمون مآربها ويؤكدون سلطانها ، وجبروتها عليه .

وفى الوقت الذى تصرف فيه فرنسا على بوليسها وعيونها هذه الثروة الطائلة من أموال الشعب الجزائرى نجد أن ماخصصته من هذه الميزانية للصحة العامة لايتجاوز أربعمائة وثلاثين مليونا من الفرنكات ، وما أرصدته منها للتعليم أقل من ذلك بكثير .

لذلك انتشرت الأمراض بين طبقات الأمة وضج المستعمرون حينما تبين لهم أن نسبة القادرين على حمل السلاح من الجنود الوطنيين قد هبطت لأن الأحوال الصحية لم تعد تسعف الأتون الفرنسى بالآلاف المؤلفة من أبناء الغرب الجزائريين ، لدفعها إلى جوفه فى حملاته الإستعمارية ، وليحولها إلى أشلاء وهياكل عظمية ، إنه يطلب المزيد من ضحاياه .

فهذه القوة الجبارة التى تسمى « إدارة الأمن العام » هى أداة إستبدادية نجدها فى تحفز دائم واستعداد قائم للانقضاض على الشعب الجزائرى إذا تحرك ، أو أظهر امتعاضا . إنها تمكن المستعمرين من إبعاد أمة بأسرها عن دفة الحكم . وعن تولى المصالح العامة فى بلادها . أى تجعل من شعب يزيد تعداده على تسعة ملايين نسمة غريباً فى بلاده ، طريداً فى وطنه ، منبوذا على الثرى الذى حمل سطوة آبائه وأجداده ، بل تفعل أكثر من هذا ، إنها تقيم بينه وبين العالم سدا لا يجعله يبصر شيئاً مما وراءه ، لأنها تعزله عن الدنيا كما يعزل الموبوء والمجذوم ، كى لا يرى نور العالم . ألا فليعلم العالم أجمع أن أهل الجزائر محرومون فى بلادهم من قراءة الجرائد العربية التى تأتى إليهم ، وإن لدى المكاتب العامة قواعد لا تسمح لها أن تعير الوطنيين حتى الكتب الفرنسية ، التى تتحدث عن الحرية وآمال الشعوب .

فهل رأيتم سداً كهذا السد .

أما فى الميدان الاقتصادى فما من شعب من شعوب الدنيا تحمل ما تحمله الشعب الجزائرى ، منذ وضعت فرنسا قدمها فى شمال إفريقية . إنها أخذت تنهب الثروة الوطنية ، وتصادر أملاك الأهالى وتجعل أراضى الحكومة والدولة وخيرات الأمة وقفاعلى المستعمرين الفرنسيين ، ومن لاذ بهم من طريدى الجنسيات الأخرى .

ولقد نقل صاحب كتاب تحفة الزائر فى مآثر الأمير عبدالقادر وأخبار الجزائر أن قائد الجنود الفرنسية رتب مجلسا من رؤساء الجند ، لضبط الخزائن من الأموال والمهمات الحربية والذخائر ، فتحصل من ضبطها على ما قيل من الذهب والفضة ، وقيمة الجواهر ٥٢٧ و ٦٨٠ و٤٨ فرنكا من الذهب ، ومن الحنطة والشعير ٣ ملايين ومن المدافع والبنادق والبارود والقنابل وغيرها مع ثمن الأملاك الأميرية خمسين مليونا .

فهذه الثروة الطائلة التى وقعت غنيمة لأيديهم عند الفتح علمتهم طريقة الاستحواذ على غيرها ، فإذا هم من يولية سنة ١٨٣٠ إلى سنة ١٩٤٧ يسيرون على هذا المنوال من المصادرة والاغتصاب حتى انتهوا بأن فرضوا الفقر والفاقة والإملاق على شعب بأسره .

وهذه الثروة الطائلة قد غطت ما تكلفته الحملة الفرنسية الأولى

من أعباء مالية علاوة على ضياع الديون ، التى كانت فرنسا مدينة بها لحكومة الجزائر الإسلامية .

أما مصادرة أملاك الوطنيين فسياسة وضعتها فرنسا وقلدتها فيها إيطاليا وإسبانيا ، وهى تتلخص فى تحديد منطقة خصبة من الأراضى ، ونزع ملكيتها اغتصابا ، ونقل سكانها بالقوة منها . (١)

وقد عمدت فرنسا لأول مرة إلى هذه السياسة فى أقاليم القبائل وفى جهة قسطنطينة كعقاب أنزلته بالسكان الجزائريين عقب ثورة عام ١٨٧١ ، إذ نزعت ملكية ما مقداره خمسة ملايين من الأفدنة المصرية ، منها مليون فدان من أجود الأراضى الخصبة شردت أصحابها ، وجعلت هذه الأراضى لإسكان المهاجرين الفرنسيين ، خصوصاً أهالى الألزاس واللورين ، وهم الذين طلب باسمهم الكردينال لا فيجرى ، تسليمهم هذه الأراضى ، وإخراج الأهالى الوطنيين منها دون أن يعوض أصحابها شيئاً .

وقد سارت حكومة الاستعمار على طريقة فرض غرامات باهظة ، وتحصيلها بشدة متناهية ، فأخذت ملايين الفرنكات من أهالى المقاطعات التى قامت بثورة القبائل ، وعرف الوطنيون الذلة والمسكنة ، وبيع الأراضى والدور فى سبيل عتق رقابهم .

---

(١) تنفذ هذه السياسة ضد المسلمين فى روسيا والقوقاز وفى الهند واخيراً بشكل علنى فى فلسطين .

ولا يزال بعض الإخوان المغاربة الذين لقوا الويل على أيدى فرنسا، يحدثون أهل الشام بهذه الكوارث، ويقولون لهم : أنتم بخير مادمتم بعيدين عن حكم فرنسا المباشر ، وهو الذى يمثله قاضى الصلح الفرنسى ، وحارس الأحراش ، فالثانى يكتب المخالفات والأول يصدق غيابيا عليها فلا يشعر صاحب الملك الوطنى إلا بالتنبيه على نزع الملكية يلاحقه ، فلا يقدر أن يفلت من يدى القضاء إلا وهو مجرد من كل مايملك .

وبهذه الأساليب والقواعد التعسفيةخرجت أحسن وأخصب الأراضى الزراعية وأجودها ، من أيدى الوطنيين ، وأصبحت تحت يد المستعمرين الفرنسيين ونزلت نسبة أملاك الجزائريين إلى نسبة ٣٦٪ من الأراضى الزراعية ، التى كان يملكها الجزائريون إرثاً عن آبائهم وأجدادهم ، وأدخل الفرنسيون فلاحة الكروم التى شغلت أكثر من ستة ملايين فدانا ، وهى كروم مخصصة لأنواع الأنبذة فهبطت مساحات الأراضى المخصصة بالحنطة والمحاصيل الحيوية ، لمعيشة السكان الوطنيين وتعرضت مناطق الجزائر لأخطر المجاعات ، التى انتابت أفريقية فى العصور الحديثة ، نتيجة لتلك السياسة الإستعمارية التى انتزعت من الأهالى أخصب أراضيهم ، وجعلت منهم عمالا أجراء ، يعملون لدى الكولون

الفرنسي لقاء دراهم معدودة ، فى أراضى كانوا يملكونها فى الأمس القريب .

فالبلاد الجزائرية التى كانت قبل ١٨٣٠ تكتفى سكانها من محاصيلها الزراعية ، وتصدر من خيراتها الشيء الكثير قد أصبحت فى موقف اقتصادى ، يجعلها عالة على غيرها فى إطعام سكانها وإعاشتهم ، لأن الاقتصاد الزراعى والإنتاج الذى فرضته فرنسا عليها لا يتفق مع حياة السكان الوطنيين ، ومصالحهم ، وموارد رزقهم ، وتنظيم أمور معاشهم ، فهم فى فقر مدقع ، واحتياج دائم ويموت من هؤلاء آلاف كل سنة بسبب الإملاق والمرض وسوء التغذية .

وقد مات فى سنة واحدة حسب التقارير الفرنسية ما يقرب من نصف مليون جزائرى ، إبان المجاعات التى انتابت بلاد الجزائر فى إحدى سنوات القرن الماضى ، ولم تحرك هذه النكبة أحداً من الأجانب ، الذين لم يشعروا بها ، وكانوا فى رغد من العيش الدائم .

إن قيام سلطة حكومية فرنسية بالجزائر أمضت أكثر من مائة عام ، لا يهمها شيء من أمور المواطنين — أمر لا يقبله نظام العالم الجديد ، ولا يمكن أن يسلم به دعاة الحرية ، ومن يتبجحون بمبادىء رفع الظلم عن الشعوب المغلوبة على أمرها ، هذه حكومة

تفرض الإمتيازات وحقوق الإنسان لفريق من السكان ، تمنحه كل الخيرات ، والباقى منهم أى تسعة أعشار السكان ، وهم أهل البلاد مجردون من كل حق لهم ، بل تطاردهم سياسيا واجتماعيا واقتصادياً وتسير بهم نحو التشر يدوالإفناء .

وفى سبيل إبقاء هذه الحالة تحرم الحكومة الجزائرية الفرنسية أهل الجزائر من حق التعليم ، وما يتبعه من حق النفوذ الإجتماعى . فهى منذ سنة ١٨٣٠ أبطلت كافة المؤسسات الثقافية والتعليمية ، التى كانت قائمة بمدينةالجزائر وفرضتسياسة الجهل المطبق ، ومحاربة اللغة العربية ، لغة البلاد الرسمية ، واعتبرتها لغة أجنبية ، بل ذهبت لأكثر من ذلك ، إذ حرمت تعليم القرآن الكريم فى الكتاتيب إلا إذا علمت معه الفرنسية ، فكم عدد هذه المؤسسات التى بوسعها أن تعلم لغة أجنبية فيها ؟ كان هذا القانون بمثابة حرمان الأهالى من تعليم الكتاب الكريم ، ولا يوجد ما يشبه هذا القانون سوى الإجراءات التعسفية التى فرضتها حكومة فرديناند وازابلا ، على أهالى غرناطة المسلمين عندما أوقعهم سوءالحظ تحت بطاش قوم نزعت كل عواطف الإنسانية من قلوبهم .

ولعل أعظم ماتمتاز به الإدارة الفرنسية بالجزائر محاولة نشر الجهل ، وتعميم الأمية بين طبقات الشعب الجزائرى ، حتى لا تقوم له قائمة ، أو يشعر بشخصيته ووجوده .

فقد صرح عميد الجامعة الجزائرية أمام لجنة الإصلاحات الإسلامية فى يناير سنة ١٩٤٢ بمدينة الجزائر (أن بين ١٢٥٠٠٠٠ طفل وطنى فى سن الدراسة ١٠٠٠٠٠ فقط خصصت لهم ٦٩٩ مدرسة وأن عدد الأوروبيين حسب الاحصاء ٩٠٠٠٠٠ وعدد أبنائهم الذين يتمتعون بالتثقيف والتعليم الابتدائى ٢٠٠٠٠٠ طفل خصصت لهم ١٤٠٠ مدرسة).

هذه أرقام تتحدث بنفسها عن سياسة فرنسا إزاء رعاياها المسلمين بالجزائر ولو شئنا أن نقيس حالتهم فى درجات التعليم العالى والثانوى لرأينا العجب العجاب فإن النسبة لا تتعدى فيها ١٠ ٪ بأى حال من الأحوال ولم نكن نصدق شيئاً من ذلك حتى عاينا هذا بأنفسنا فى بعض المعاهد الفرنسية التى تفرض لأبناء المسلمين نسبة معينه لا تتعداها ، مهما كانت ظروف أهليهم ، وذلك لكى يقترن الاسلام بالجهل ، وتلصق بالمسلمين ظلما وصمات التعصب والتأخر وعدم الرقى والخروج عن ركب الحضارة فى القرن العشرين .

هذه سياسة أمة تقول : إنها أعلنت حقوق الانسان ، وبشرت العالم بدين جديد بمبادئه وبالحرية والعدالة والمساواه وانها هدمت بثورتها صروحا للاستبداد ويزيد الفرنسيون على ذلك قولهم : إنهم حملوا اعلام الحرية والرقى والسعادة إلى بلاد الجزائر ولقد رأيت فيما تقدم البراهين القوية على سيطرتهم ، وجبروتهم وإفلاسهم فى حكم الجزائر .

ليس لدينا للآن دليل قاطع على توجه العالم نحو المثل العليا ؛ بل إن موقف مجلس الأمن إزاء قضايا مصر وفلسطين واندونيسيا ليس مشجعاً . ولعل انقسام الكرة الأرضية إلى معسكرين من نتائج هذه الرجعية القائمة فى أنحاء الدنيا .

ولكن على الشعوب مهما كانت الظروف القائمة أن تشق طريقها إلى حياة النور ، وأن تعمل لتتغلب على المصاعب القائمة ، حتى تفرض شخصيتها وآمالها وأهدافها ، على العصر الذى تعيش فيه .

سيكون الطريق وعراً أمامنا ، والعقبات صعبة فى صعودنا نحو الحرية والعدالة ، ولكننا لن نرجع عن طلب معاملة الند للند ، وأن يعتبرنا العالم مجموعاً حياً راقياً ، نملك من حق الرعاية والمعاملة ما يملكه أى مجموع أوروبى راق ، يسير نحو التطور . إننا نفضل أن نفنى جميعاً من أن يحاول العالم إرضاءنا بالعرض دون الجوهر ، أو يلهينا بالأقوال دون الحقائق . إننا نأخذ عقلية وأساليب أوربا لنتغلب على جبروت أوروبا .

القسم الحادى عشر

الاستعمار يواجه الاســـلام في الجزائر

قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك
من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز
من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير
إنك على كل شيء قدير
(آل عمران)

ولنبلونكم بشيء من الخوف
والجوع ونقص من الأموال
والأنفس والثمرات وبشر الصابرين.
(البقرة)

قل إن صلاتى ونسكى ومحياى
ومماتى لله رب العالمين.
(الأنعام)

تبين للعالم قوة الإسلام ، وعظمة الرسالة المحمدية ، فى هذه الآيات البينات ، التى دعت المسلمين إلى الصبر والمصابرة ، للوقوف أمام حوادث الدهر بشجاعة وثبات ، فلا تلين قناتهم ، وتذهب ريحهم وإنا لنبعث بها تحية لأخواننا المسلمين بالجزائر ، الذين وقفوا أمام فرنسا وجبروتها . ولئن كانت صفحات كفاحهم السياسى والحربى فى الجزائر ، معروفة أمرها وتداولتها الأيام ، فإن كفاحهم الدينى فى وطنهم وثباتهم معجزة من معجزات الله لأن فرنسا فى معاهدة ١٨٣٠ مع حاكم الجزائر تعهدت كما قلنا باحترام الدين الإسلامى وشعائره ، وأخذت على نفسها المواثيق ، لأن تترك للمسلمين أوقافهم وعوائدهم ثم عقدت عدة معاهدات . واتفاقات ، مع الأمير عبد القادر الجزائرى وغيره من الزعماء ، وفى نصوصها جميعا : العهود والمواثيق على غرار هذه المبادىء ، وهى حرية العقيدة وترك أمور الدين الإسلامى وشعائره بيد أهله .

ولكن هذه المعاهدات ، وما تحمله من إيمان ووعود ، وما أعقبها من تصريحات رسميه صادرة من الحكومة الفرنسية وممثليها ، ثم من الأمبراطور نابليون الثالث نفسه ، عند زيارته للأقطار الجزائرية كل هذا لم يمنع الاستعمار أن يبسط يده على كل شىء فى هذه البقعة العزيزة علينا ، وكان من جملة ذلك أن مدت فرنسا يدها إلى الدين

الإسلامى ، وإلى الأوقاف الإسلامية ، تراث القرون الماضيه ومفخرة المسلمين ، لأنها أوجدت ووقفت وبقيت طول الأزمان واحترمها ملوك المسلمين وأمرائهم لما يعلمون من أنها ارصدت للصرف على المؤسسات الإسلامية ، وهى هذه المدارس والمساجد الجامعة ، التى تحرص على تثقيف أبناء الأمة ، وتثبيت قواعد الدين ، وتلقين الناس تعاليم الشريعة الغراء .

فما الذى حدث فى الجزائر ؟

ذكر الدكتور انريكو انسباتو الإيطالى فى كتابه الإسلام وسياسة الحلفاء (ص ٧٠) ما يأتى بالنص :

ارتبطت الحكومات الأوربية فى بعض الجهات باحترام أملاك الأوقاف وما أرصد من الأملاك على الزوايا والطرق الصوفية ؛ وهذا شرط خطير يحسن بإيطاليا أن تفكر فيه طويلا ، قبل أن تأخذ به ، لما ينتج عن احترامه من نتائج وخيمة ، سبق لفرنسا أن تحملتها فى الجزائر ، لأنها حينما أعطت هذه المواثيق والعهود لم تكن لديها فكرة واضحة تماما ، عن أهمية أوقاف المسلمين ، وأثرها فى ابقاء قوتهم الدينية ، فكان من نتيجة هذه السياسة المرتجلة أن ارتكبت فرنسا سلسلة من الأخطاء للخروج من هذه السياسة ، التى فرضتها على ارادتها ، فاضطرت أن تناقض ما أخذت به نفسها ، وتعهدت للمسلمين باحترامه .

(١) ولما هاجم المستعمرون نظام الاقاف فى شمال إفريقية عامة ، قالوا: إنه نظام رجعى ، يمنع تداول الثروات ، والقصد من ذلك حرمان المسلمين من أملاكهم ، ونسبوا إليه أنه نوع من استغلال عمل الإنسان لأنه يفرض الجبر وذلك حينما رأوا الطلبة والمريدين يتلقون العلم فى الزوايا والمدارس الإسلامية ، ويعملون فى زراعة الاراضى الملحقة بالمعاهد ، وكانوا يطلقون على هذا العمل التعاونى الإنسانى : إسم المعونة . ولما ازدهرت أملاك الاوقاف وزادخيرها استكثروا هذا الخير عليها ؛ وحاربوها باسم الحرية والعدالة والمساواة ، وهم يعلمون أنهم يقصدون أولا وآخرا هدم قواعد الدين وأفقار أهله وهذاماوصلوا إليه، حينما شردوا الطلبة ، ونزعوا أملاك الاوقاف

ولم تكن هذه الاوقاف مرصدة للعلم وحده ، وإنما كانت لوجه الله للسائل والمحروم ، وفى هذه الناحية بالذات يقول صاحب كتاب « التشريع الإسلامى الجزائرى صفحة ١٨٠ ما يأتى » :

إن خمسة أعشار الاراضى الزراعية فى الجزائر كانت أوقافا ، وأن فرنسا حينما صادرت هذه الاملاك بسطت يدها على الدين الإسلامى ، وجعلت آلافا من الاهالى الذين كانوا يعيشون فى تلك الاراضى جماعات ، تتجول لطلب العيش ، فأصبحت تسمى بفيالق الفقراء .

(١) يلاحظ القارىء أن الذين يهاجون الأوقاف بمصر يستعملون منطق الدول الاستعمارية .

والحكومة الفرنسية تمثل فكرة لادينية[1]، ومعنى هذه السياسة فى العرف الذى نادت به فرنسا هو الكنيسة الحرة ، تتعاون مع الدولة الحرة .

وتفسير ذلك أن تمتنع الحكومة عن فرض إرادتها على أنظمة الكنيسة ، وقرارات رجال الدين ، فيبقى الفاتيكان يقوم برسالته الدينية والسياسية بحرية أوسع مما كان فى السابق .

ولما انتقدت سياسة فصل الدين عن الدولة صرح احد اعضاء مجلس الشيوخ « إن هذا الفصل طلاق ولكنه يلزم الطرفين بالعيش تحت سقف واحد مع تعاون وتفاهم أوفق مما عهداه قبل صدور حكم الطلاق . »

وقال أيضا « أن الكاثوليك سيكونون أكثر كاثوليكية تحت هذا القانون ، لانه يؤكد سلطة البابا ، ويحترم ممثليه ويترك لهم الحرية دون أن يقفوا للدفاع عن أعمالهم أمام ممثلى الجمهورية . »

وليس هناك أصرح من هذه الأقوال لترك شئون الله لله ، وشئون قيصر لقيصر ، فما الذى هيأته حكومة الجمهورية التى فصلت الدين عن السياسة لرعاياها المسلمين ، الذين اعترفت لهم بحقوقهم الدينية كاملة ؟ .

---

(١) لا يك Laique .

- يقول صاحب كتاب « بحث التشريع الجزائرى صفحة ٦٣٢ لارشير .

إن الأوقاف الإسلامية التى تتولاها الدولة يصرف دخلها على ناحيتين :

الدين الكاثوليكى ٧٩٠٫٠٠٠ فرنكا

الدين الإسلامى ٢٣٧٫٠٠٠ فرنكا

والاعتراض الأساسى هو كيف تتولى دولة ينص دستورها على فصل تام بين شئون الدين والدنيا أملاك دين ، لم يكن له بها صلة فى يوم من الأيام ، فعلى أية قاعدة بنيت هذه السياسة ؟

والإعتراض الثانى : هو إذا فرض أن رأت هذه الدولة أن تتبرع من أموالها بهذه المبالغ ، وهى دولة لادينية فالمعروف أن أتباع الديانة الكاثوليكية لا يصلون إلى عشر السكان المسلمين ، ولكنهم يتمتعون بما يزيد على ضعف المبالغ المخصصة للشئون الدينية لمن هم أكثر من عشرة أضعافهم ، فأى قاعدة إنصاف أخذت بها ؟ .

ويهون الأمر لو كان هذا تبرعا ، ولكن لأن يؤخذ هذا من أملاك وأموال وأوقاف المسلمين وهى مرصدة ومحبوسة على هذه الناحية

منذ قرون طويلة الأمد ، ولم يتعرض لها أحد من الدول ، التى تعاقبت على حكم الجزائر ، وهذه ثالثة الإعتداءات ، التى لا يبررها منطق للآن ، ويفسر لنا كيف ضعفت الحياة الدينية فى الجزائر وفى ذلك يروى لنا (البير ديفوكلى A . Devaucli فى كتابة المؤسسات الدينية فى العاصمة الجزائرية أن مدينة الجزائر كانت تحوى ١٨٦ مسجداً فى سنة ١٨٣٠ ولا يوجد فى القطر الجزائرى بأكمله غير ١٦٦ مسجداً جامعاً كما ذكر ذلك صاحب (بحث التشريع الجزائرى) ولا نشك فى أن هذا العدد سيهبط إذا دام حكم فرنسا جيلا آخر .

ولبيان هذه السياسة التعسفية إزاء المسلمين وشريعتهم ودينهم يحسن أن نشرح هذه الفكرة ، من مراجع الاستعمار الفرنسى نفسه .

فقد جاء فى كتاب جورج هاردى G , Hardy « نظرياتة الإستعمارية الكبرى » إنه فى المناطق التى لم يسدها الإسلام قط أى فى أفريقية السوداء ، يجب أن تحاط الأديان والمذاهب الأفريقية بما يكفل حمايتها وبقاءها وفى مناطق البربر يجب منع تعليم اللغة العربية منعا باتا ، وعدم تشجيع نشر المكاتب القرآنية ، ومنع نصب القضاة الأسلاميين والحيلولة دون تنفيذ شريعة الإسلام »

« أما فى الجهات التى ثبتت قواعده فى ربوعها فلا مانع من تركه[١] يعيش ، ولكن فلنحترس من الاهتمام بأمره ، وإظهار الإعجاب به .

(١) تنفذ بعض الدول الاسلامية المستقلة هذه السياسة فى أراضيها .

فهذه أصول السياسة الاسلامية الفرنسية، وهى تحول دون إنتشاره فى أفريقية ، وتعتبر القبائل من أهل الجزائر ومراكش غير مسلمين ، وتحاول أن تحد من أثر الإسلام فى المناطق الاسلامية الصميمة .

فلننظر إلى بدء هذه السياسة ، وما تركته فى نفس الشيخ محمد بيرم التونسى ، صاحب كتاب صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار ، الذى طبعه سنة ١٣٠٢ هجرية ، عن زيارته الجزائر ، فى رحلته عام ١٢٩٥ هجرية ، وقد مضى على ذلك سبعون عاماً تقريبا إذ قال :

أن الدولة الفرنسية هى القائمة بمصاريف إقامة الجوامع وما فيها من قراءة الأحزاب أو كتب الحديث ، لأنها استولت على جميع الأوقاف ، واقتصرت فى كل بلد على عدد مخصوص من المساجد ، تقوم به وغيره ، تصرفت فيه بما يناسبها ، وحرمت المستحقين من مالهم كأوقاف الحرمين .

وذكر كيف أقدمت الهيئات التبشيرية عند وقوع المجاعة الكبرى فى الجزائر على تنصير عدد من الأولاد الأعراب وغيرهم من المسلمين بنات وأطفالا ، وإن بعضاً منهم لما كبروا وعلموا بأن أهلهم مسلمون فروا إلى أهليهم .

وأشار إلى بقية من علوم السلف كانت تدرس في قسنطينة وتلمسان والجهات الجنوبية ، ولكن القلق كان شاملا أفاضل العلماء فقد تقابل مع الشيخ على الخفاف المفتى المالكى بقاعدة الجزائر وهو من تلامذة علامة القطر الافريقى الشيخ إبراهيم الرياضى ، وله فضائل كاملة ، وتقوى ، وسكينة ، واطلاع فى الفقه والحديث . ولما أنس بمؤلف الكتاب فاتحه فى أمر الهجرة إلى بلاد الاسلام فأخبره أن مثله نادر الوجود ، وإن بقاءه فيه لتعليم الناس دينهم أنفع له ، وأكثر ثوابا عند الله من خروجه بنفسه ، وترك تلك الأمة المسلمة خالية من مثله ، بل ربما كانت هجرته سبباً فى خروج غيره فتحرم عامة المسلمين ممن يلقنهم تعاليم الاسلام ، وعقائد الفقه . وقد ورد فى كتب الشريعة أنه إذا تعذر على ولى الأمر فداء الأسارى من يدي العدو فليؤخر بينهم العلماء .

* * *

فهذه حالة الجزائر من ناحية من أهم النواحى التى تهمنا ، ناحية العقيدة الأسلامية ، وفيها عبرة وتذكرة ، لمن يريد أن يفهم حقائق الإسلام فى قطر من أعز الأقطار الإسلامية ، وأقربها إلينا ، وأبعدها أثرا فى تاريخ أفريقية العربية ، التى لن تموت ، وفيها دعائم الإسلام القائمة .

وإننا لنعدها معجزة إن بقيت هذه الدعائم فى أفئدة ملايين من الناس بعد سنوات الضغط السياسى ، والمحاربة التعسفية ، التى أشرنا إليها ، ولكن الذى نخشاه هو أثر سياسة الافقار ، التى فرضتها فرنسا على رعاياها المسلمين ، فهذه أبعد غوراً من أى أساليب الإرهاق التى رآها العالم ، وهى التى ورد وصفها فى محكم الآيات الواردة بالقرآن ، بقوله تعالى (ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس) فقد أصيب المسلمون فى نكبتهم بالاستعمار الفرنسى بهذه النوائب: قلة الغذاء ، وكثرة المرض ، وسكنى المنازل التى لا تليق بالإنسان ، ثم دهمتهم فى السنوات الأخيرة نكبات القحط المتتالية ، وتفشت فيهم الأمراض القاتلة .

فهناك تفعل قلة الغذاء ، أو عدم تنظيمه ما تفعله فى كافة بلدان الدنيا ، التى أصيبت بحكم الأوروبيين ، حتى أصبح الكلام هنا إعادة لما سبق ذكره ، وتأثير هذا كبير فى تكاثر السكان وتناسلهم ، وفى إخراج جيل من الأجناس البشرية ضعيف لا يقوى على البقاء أو الصمود أمام تفوق الأجناس الأوروبية من الناحيتين العقلية والبدنية .

ويسكن لدينا عدد من السكان فى أكواخ من صفائح الغاز الفارغة ولكن فى الجزائر يعيش أكثر من نصف مليون مسلم ، فى أحياء برمتها ؛ أو فى مدن قامت على هذا النوع من المساكن . ولهذا لا نعجب

أن نسمع أن أكثر من ٤٠٠٫٠٠٠ جزائرى مصابون بالسل، وهو يعادل عدد المصابين به فى فرنسا، وعدد سكانها يقرب من أربعين مليونا، ولما كانت الوقاية الصحية غير متوفرة لدى الأهالى وليس لديهم أية خدمات لحمايتهم، فقد انتشرت الأمراض الزهرية انتشاراً اجتاح قرى برمتها.

إن أعظم صورة تقدمها فرنسا بعد حكم دام أكثر من قرن من الزمن هو مواكب النساء والرجال والأطفال، الذين لا يجدون من الكساء إلا مايسترهم يسيرون نحو بقايا الأطعمة ومزابلها يلتقطونها لسد رمقهم. بعد أن حرمتهم حكومة الاستعمار من زعمائهم، وقادتهم، ومدارسهم، وأوقافهم، وفرضت عليهم الذلة والمسكنة، وحرمتهم من كل مميزات شخصية الدين واللغة والتوجيه. لقد بقى لهم شىء واحد هو الإسلام والإيمان بالله.

(قل أن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين).

قد يرى البعض أن الامة التى كانت ترج البحر الابيض المتوسط قبل احتلال فرنسا قد رقدت رقدتها النهائية واصبحت فى ذمة التاريخ بعد أن ادّت رسالتها ولكنه مخطىء فى ظنه. فالأمة الجزائرية ستحطم هذه الاغلال، وستخرج من هذه الظلمات بقوة تبهر فرنسا والكولون الفرنسى، لأن النيران المتأججة لايزال بريقها

واشعاعها تخفيه تحت الرماد. امة إذا تحركت وثارت ستهز هذا الركن هزة عنيفة، لاتقدر على الوقوف إزاءها قوات الظلم والتعسف.

« اننا لا ننتظر الرحمة من أشد الناس عداوة لنا ».

« كما لا نرضى بالعطف يغمرنا به أحب الناس الينا ».

« دعونى أصار حكم بالحق: والحق اقول ».

« أى أخوانى فى الحروب والمعامع والمعارك ».

« انى احبكم من اعماق القلب ».

« إنى اعاهدكم كواحد فيكم ».

« انى كما كنت فى الماضى سأبقى اليوم وغدا واحداً منكم ».

بهذا النشيد الذى كتبه الفيلسوف الالمانى اختتم هذه الكلمة وهو ينم عن شعورى تماماً: وأعتقد أن المسلمين فى كفاحهم سواء فى شمال إفريقيا أو فى أنحاء الروسيا، أو فى مقاطعات الهند، لن يقابلهم خصومهم بالرحمة: سيفرض علينا القتال وهو عراك حتى الموت. فأما النصر أو الابادة ولا وسط بينهما.

إن الحياة هى التفاؤل، ونحن ندعو إلى انتزاع النصر فى السلم والحرب ولا يكون هذا إلا بنقل الجماعات الإسلامية إلى حياة القرن الذى نعيش فيه وتحاشى الوقوع فى الأخطاء التى وقعنا فيها قبل اليوم

مراجع الكتاب

كتب عربية

---

١ — في بلاد الناس أو رحلة الشتاء والصيف .
بلاد الجزائر القطر التونسي طرابلس الغرب
المطبعة العثمانية . بيروت
تأليف عبد المجيد كامل الضابط بالجيش المصري سابقاً

---

٢ — تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر
المطبعة التجارية . الأسكندرية ١٩٠٣

---

٣ — صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار
١٣٠٢ هجرية
تأليف محمد بيرم التونسي

كتب فرنسية

---

1 — Histoire de l 'Armée Francaise		Généneral Weygaud
2 — » Militaire de Mohamed Aly et ses Fils	Parle	
3 — Campagnes Modernes	»	Général Decoins
4 — Nos Grands, Problémes Coloniaux	»	Georges Hardy
5 — Réalités Coloniales Mercure de France		
6 — Pour l' Empire Colonial Français	»	Cabriel Hanotaux
7 — La Révolte Arabe	»	Eugéne Jung
8 — L'Avenir Economique de nos Colonies	»	» »
9 — Voix de l' Orient	»	Jacque d' Aumale
10 — L 'Islam et la Politique des Alliés	»	Enrico Insabato
11 — Les Siécles Obscurs du Maghreb	»	E. F. Gautier
12 — Précis de Geographie Economique	»	J. F. Horrabim
13 — L. Emir Abd El Kader	»	Colonel Paun Azan
14 — Allah est Grand	»	Mohammed Essad Bey
15 — Le Socialisme Constructif	»	Henri de Man

16—L' Allemagne en Afrique et La Guerre

Par

le Baron Hulot Libraiie Telix Alcan 1918

17—La Politique Orieutale de la Russie 1918

18—Discours et Messages Général de Gaulle

19—Le Livre Jaune Français

Ministére des Affairees Etrangeres

20—. Les Intrigues Ang laises Contre L 'Islam

Mohammed Farid Bey

Librairie Nouvelle de Lauxanne 1917

مؤلفات فرنسية من مجموعة:

Les Doléances des Peuples Opprimés ;

33—En Algerie

Les Corruptions de la Religion et des Moeurs Indigenes

Par un Musulman Algerien

34—La Tunisie et l Algerie

Par Cheikh Ismail Sefaihi Ancien Cadi de Tunis

et

Chiekh Saleh Cherif Ancien Professerr a L'Université

Zeitouna de Tunis

35—L Islam dans l ' Armée Francais

Lieutenant Indigén Bou kabouya Hadj Adallah

des Tirailleurs Algeriens

Librairie Nouvelle de Aouzanne 1917

كتب انجليزية

21—History of The Great War Military Operations :	
22 — War Speeches	Winston Churchill
23 — The Rising Tide of Color	Lothrop Stoddard
24 — The New World of Islam	» »
25 — The Revolt Against Civilisation	» »
26 — The Menace of the Under Man	» »
27— One World	WendellL'Willkie

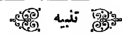
28 — A study in German Ideals
General ron Bissings Testament

29— Germany's Annexationist-Aims by S. Grumbach

مؤلفات طبعتها ونشرتها

The Christian Literature Society for India.

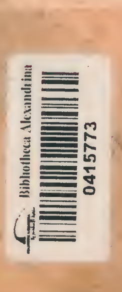
30— . The Ottoman Turks	The Rev. Canon sell
31— The Mamluks in Egypt	„
32— Muslims in China	„



وقعت بعض أخطاء مطبعية وزيادات فى النص
يمكن للقارىء الكريم تداركها وقت قراءته .

رقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	السعر
١	يسألونك	الأستاذ عباس محمود العقاد	٢٥٠
٢	أثر الشرق فى الغرب	دكتور فؤاد حسانين	١٥٠
٣	قصة الكهرباء واللاسلكى	الأستاذ محمد عاطف البرقوقى	٢٥٠
٤	مشكلاتنا الاجتماعية	« محمد عطيه الابراشى	٢٠٠
٥	الحبشة	« حسن محمد جوهر	٢٠٠
٦	الغزل عند العرب	« حسان أبو رحاب	٢٥٠
٧	عائشة أم المؤمنين	الآنسة زاهيه مصطفى قدورة	٢٥٠
٨	فلسفة القرآن	الاستاذ عباس محمود العقاد	٣٠٠
٩	أحاديث الصباح	الشيخ محمود شلتوت « محمد محمد المدنى	١٥٠
١٠	أبطال الشرق	الأستاذ محمد عطيه الأبراشى	١٥٠
١١	ابو العتاهية	« محمد احمد برانق	١٥٠
١٢	الراهبة المتوحشة	دكتور عباس ابراهيم حسن	١٠٠
١٣	المهن الذهبى	الأستاذ وهبي اسماعيل حنفى « ابراهيم عبد الله	١٠٠
١٤	صرخة فى واد	« محمود غنيم	٣٠٠
١٥	الصحافة والصحف	المرحوم الأستاذ عبدالله حسين	٣٠٠
١٦	الوزراء العباسيون	الأستاذ محمد أحمد برانق	
١٧	اللعب والعمل	الدكتور على عبد الواحد وافى	
١٨	ولادة	الأستاذ على عبد العظيم	
١٩	من كل نبع قطرة	« حسن جوهر	

فهرس الاستعمار


Bibliotheca Alexandrina
0415773